

## كلمة العدد :

### هذا العدد الجديد

بقلم : عبد القادر الهاني

هذا العدد 174 هو عدد شهري مارس وأفريل وفيهما أحداث وطنية كبرى فمن 20 مارس عيد الاستقلال إلى 21 منه عيد الشباب إلى 9 أفريل عيد الشهداء. ثلاث مناسبات كبرى يحتفي فيها التونسيون كبارا وصغارا نساء ورجالا بالمناسبات الثلاثة احتفاء العارف بدلالاتها المدرك لكنيتها المقدّر لأبعادها.

20 مارس 1956 هو موعد استرجاع الكرامة واستبعاد نفوذ الأجنبي وتحكمه في مقدرات البلاد واستحواذة على خيراتها <http://archive.tn>

20 مارس 1956 هو الحد الفاصل بين عهدين لا سبيل للمقارنة بينهما، عهد انتهى هو عهد الظلم والقهر والاستغلال والتهميش، وعهد بدأ هو عهد الحرية، عهد البناء والتشييد ، عهد بناء دولة عصرية ها نحن اليوم نفخر بإنجازاتها التي لا نكاد نستطيع لها حصرا إنجازات شملت كل المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية وطالت كل شرائح المجتمع : المرأة و الرجل وجميع المراحل العمرية الطفل والشباب والكهل والشيخ على أن ما يميز هذه الدولة العصرية هو تواصل المسيرة على قدم وساق غير عابئة بالمصاعب ولا مدعية أنها بلغت الكمال، وإنما هو الإنجاز فالإنجاز ثم الإنجاز على مدار الساعة

واليوم والعام.

دولة بدأت مع الزعيم الراحل الحبيب بورقيبة وتتواصل اليوم وغدا مع الرئيس الشاب زين العابدين بن علي مؤسس الجمهورية الثانية في تونس الأنس تونس الأمن والأمان. تونس التي ارتبط فيها عيد الشباب بعيد الحرية والاستقلال، وفي هذا مغزى لا يستعصي على الذهن اليقظ إنه يعني أن الشباب هو صمام الأمان لمستقبل تونس فهو المعول عليه في بناء المستقبل المشرق ضرورة أنه لقي من العناية والرعاية تعليما وتكويناً بهما يجابه الزمن فيتغلب على صعوباته ويقاوم التحديات فيطوعها لما فيه خير البلاد والعباد.

وإذا تجاوزنا هذين الموعدين بما هو دون الثلاثة أسابيع نكون على موعد مع عيد الشهداء الذي تحتفل به يوم 9 أفريل من كل عام قفز إلى الذهن معنى على غاية من الأهمية، إنه العلم اليقين بأن ما ننعم به اليوم من خير عميم يعود الفضل فيه لتضحية شهدائنا الأبرار الذين ضحوا بدمائهم الزكية أولئك الذي لا ولن ننسى أنهم من عَبدوا لنا الطريق الذي فيه نسير وفي أنواره نبني ونعلي.

والإتحاف، المجلة الثقافية الجامعة التي تنطلق من سليانة ولا تتوقف عند حدودها، واعية بكل هاتيك المناسبات، كانت وما تزال تساهم في مجال النشاط الثقافي بما يخدم المسيرة الشاملة التي تعيشها بلادنا في نخوة واعتزاز واقتدار .

## أدب الرحلات

(4)

بقلم : محمد بن الأصفر الخامي

كما قام نفس المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت، بالمثل في عدة قطاعات تراثية أخرى، مثل المخطوطات الجغرافية العربية، الموجودة في المتحف البريطاني وهذه المخطوطات الواحدة السبعين (71 مخطوطا) في مادة الجغرافيا) قد توزعت على محاور وهي الجغرافيا العامة وكتب البلدان (وب) الجغرافية الطبيعية ، و(ت) المعجمات الجغرافية وتقويم البلدان، و(ث) الرحلات الجغرافية، و(ج) كتب الخطط وفضائل البلدان، و(ح) كتب العجائب...

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

إلا أننا لا نتصور أن النتائج ستكون باهرة حتى لو بذلت مثل تلك الجهودات المشار إليها لأنه لنا بعض القرائن الدالة على الخمول في العربي هذا المجال ذلك أنه رغم أن "السفارة" كثيرا ما كانت غدت أدب الرحلات بمادة دسمة مثلما سبق أن رأينا ذلك وخاصة منها لدى المغاربة الذين كانوا يقومون برحلات إلى اسبانيا لعنق الأسرى المسلمين من ربة السجون المسيحية، وقد كنا كشفنا عن محاولة للأستاذ على البلهوان (أحمد بن المهدي الغزالي الفاسي (1909م - 1958) في هذا المضمار وكانت ترمي إلى تحقيق رحلة للغزال المألقي وعنوانها "نتيجة الاجتهاد في المهادة والجهاد" ...

رغم ذلك فإن السفراء التونسيين مثلا سواء أولئك الـ اتع توجيههم إلى تركيا، أو إلى غير تركيا لم يتركوا لنا رحلة واحدة.

فلقد تعددا بالفعل "سفراء" بايات تونس إلى تركيا، وإلى غير تركيا ولم نعثر على نص واحد كان واحد منهم قد كتبه في غرض من أغراض "أدب الرحلات" فسلیمان ململي "سفير باي تونس إلى الولايات المتحدة الأمريكية، قد عاد بحمولة "باخرة" كاملة من الأثاث ولم يبق نصا أدبيا في إطار الرحلة ولا في إطار المذكرات لا رحلة معارف " خلافا لما كان يحدث في الماضي.

أ- المثال التونسي : أدب الرحلات من القرن 19 م إلى ما بعد

#### الاستقلال

هذا وإن، الحضور المختشم، سيمتد إلى فترة ما بعد استقلال البلاد فإذا كان الكتاب التونسيون المنخرطون في "إتحاد الكتاب" لا يمثلون ولم يمثلوا دائما، كل كتاب تونس، وأدبائها، فإن تسعة كتاب، يصيرون إحدى عشرة كاتباً لو أضفنا أدب المذكرات أثناء الإقامة في الخارج وذلك من أصل مائتين وسبع وأربعين كاتباً كانوا منضوين تحت الاتحاد سنة 1989 قد انتحوا نصوصاً تدرج تحت العنوان الكبير "أدب الرحلات".

ولو شئنا توخي الصرامة، وطرحنا جانبا النصين الذين اعتبرهما صاحبهما، وما أدرى بذلك، إعتبرهما "مذكرات" وطرحنا أيضا نصين كانا من باب "تحقيق" الرحلات" لا ابداع أدب رحلات لكانت الحصيلة أكثر من محتشمة فهي هزيلة، سبعة نصوص من جملة مائتين وسبعة وأربعين نصا !!!!

أ- فتكون 11 نصا في أدب الرحلات التونسي 0.271 بالمائة

ب- 09 نصوص أدب الرحلات التونسي 0.222 بالمائة

ت- 07 نصوص أدب الرحلات التونسية 0.172 بالمائة

هذا وإن كل أديب من هذه الزمرة قليلة العدد لم يكتب إلا نصا واحدا ووحيدا في غرض أدب الرحلات من جملة النصوص التي كتبها إلى حدود سنة 1989

**فأحمد الطويل /** صاحب خمسة عشرة تأليفا سنة 1989 وأربعة نصوص مخطوطة، بما يجعل الجملة تسعة عشرة نصا بين مطبوع منشور، ومخطوط ولم يكن من بينها ، إلا نص وحيد في نوع أدب الرحلات "رحلة إلى بلدان الشرق الأقصى" صدرت بعد سنة 1988 تحت عنوان "من سيول إلى سنغافورة، رحلة إلى الشرق الأقصى"

وأما الأديب الأستاذ مصطفى الفارسي (أستاذ الآداب واللغة العربية والاسلامية، المولود بصفاقس سنة 1934، فقد أخرج إلى حدود سنة 1989، خمسة عشرة نصا، بين نصوص سردية ، ومسرحية ودراسات، وقد كان له نص وحيد فيما يشبه أدب الرحلات وهو "من الشرق تيزغ الشمس" وكان نص كوريا الشمالية، وكان إلى البحث أقرب منه إلى أدب الرحلات...

أما الأديب الموسوعي الطاهر قيقه (المبرز من جامعة السربون في الآداب، والمولود بشاكرون سنة 1922)، فهو قد أصدر إلى حدود سنة 1989 سبعة نصوص بين ابداع وبحوث. وباللغتين العربية والفرنسية، ولم يكن حظ أدب الرحلات منها إلا نص وحيد بعنوان "الصين الحديثة".

فمن المفارقات أنه حين تيسر أمر الرحلة بما توفر للبشرية من وسائل نقل متطورة، وخاصة منها الطائرة التي تخرق العالم بأسره في ظرف بضعة أيام، وليال فقد تراجعت حظوظ أدب الرحلات... لا بل أنه قد صار يعيش على هامش الأصناف الأدبية الأخرى.

فأحمد الطويلي لم يكن ليضع ذلك النص "من سيول إلى سنغافورة" لو لم يتعاقد مع جامعة "هاتكوك" بكوريا الجنوبية لتدريس العربية هناك لمدة ثلاث سنوات.

ومصطفى الفارسي لم يكن ليكتب عن كوريا الشمالية، لو لم يكن يشغل خطة نائب رئيس جمعية الصداقة التونسية الكورية الشمالية وهو نائب رئيس تحرير مجلة "لوتس / Lotus" التابعة لإتحاد كتاب إفريقيا وآسيا...

وهذه الزمرة القليلة ذات الاهتمام الضعيف بأدب الرحلات قد غيرت "الطريق" إلى بلدان الرحلة التي لم تعد، فرنسا وإيطاليا، وسويسرا تقتصر عليها كما كاد حدث في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، مثلما رصد ذلك الأستاذ أحمد عبد السلام، وكما سبق بيانه، وإنما قد صارت البلاد الاشتراكية وبلاد آسيا هي الوجهة المفضلة للرحلات وذلك باستثناء رحلة وحيدة إلى القارة الأمريكية.

#### ب- الرحلات إلى البلاد الاشتراكية والآسيوية

- في سنة 1960 رحلة الطاهر قيقة، سابق الذكر إلى الصين.
- في سنة 1962 رحلة رشيد الذوايدي إلى يوغسلافيا
- في سنة 1965 رحلة عبد المجيد رزق الله، إلى موسكو وطشقند
- في سنة 1971 رحلة عبد الواحد ابرهم، إلى إيران (بلاد كسرى)
- في سنة 1982 : رحلة مصطفى الفارسي، سابق الذكر، إلى كوريا الشمالية
- في سنة 1988، رحلة أحمد الطويلي، سابق الذكر، إلى سيول وسنغافورة

## ت- رحلة إلى القارة الأمريكية

- في سنة 1975، رحلة رشاد تريمش ، إلى بلاد الانكا (أمريكا)  
وكانت هناك رحلتان عبارة عن مذكرات وقد اتخذت من البلاد  
العربية وجهة لها وهي :

- في سنة 1971، من وحي رحلة أحمد العيش إلى بعلبك (لبنان)  
- مخطوط من وحي رحلة : محمد الحبيب علوان إلى القاهرة، تحت  
عنوان "احتراق القاهرة" وهي مذكرات قد غطت السنوات من  
1963 إلى 1970 في 2000 صفحة

أما التحقيق فقد إنصبّ على رحلتين أيضاً وهما :

- 1988 نشر البحّارة محمد المرزوقي رحلة الحشايشي الصحراوية  
بتحقيقه.

مخطوط لعبد الجبار الشريفة موضوعه تحقيق الرحلة أندلسية وقد نشرها  
فيما بعد، فانتضح أنها رحلة (علي الورداني) الأندلسية، سابقة الذكر، هذا  
وقد كان حاول الأستاذ علي البلهوان تحقيق مخطوط رحلة الغزال  
(الإجتهد في المهادة والجهاد) وذلك هو كل الزاد ولا نظن أن التونسيين  
قد ضاعفوا الجهد بعد سنة 1989 في كتابة أدب الرحلات، رغم أن  
الصيدلاني رشاد تريمش سابق الذكر قد واصل رحلاته كعضو في جمعية لا  
يقبل في عضويتها من لم يقيم بخمسين رحلة على الأقل تقدير، ولكن الجمعية  
المذكورة لا تشترط أن تكون تلك الرحلات الخمسين مدونة لأنها ليست  
جمعية "أدبية" وإنما هي جمعية سياحية" في الأساس... لكن الصيدلاني رشاد  
تريمش قد كان من بين القليلين الذي يعمدون إلى تدوين رحلاتهم وبالفعل  
فإن الارقام المقدمة بعناية فائقة من الأب جون فانان J-Fontaine المهتم

بدراسة الانتاج الفكري والأدبي التونسي، تؤكد ذلك وهي أرقام تغطي الفترة الممتدة من 1956 إلى 1994 فهي تختلف عما سبقها في كونها تزيد عنها من حيث المدى الزمني بخمس سنوات (من 1989 إلى 1994) وهي تختلف عنها، أيضا في كونها تتصل بكل الإنتاج المنشور، سواء كان صاحبه عضوا باتحاد الكتاب التونسيين، أو لم يكن كذلك،

فلقد أحصى جان فونتان تسعمائة كتاب أدبي تتوزع كالآتي :

- 355 في نوع الشعر

- 220 في محاولة النقد

- 170 مجموعة قصصية

- 135 رواية

- 40 مسرحية

فأين أدب الرحلات ضمن التسعمائة كتابا أدبيا كانت صدرت إلى حدود سنة 1994 في تونس ؟

يتضح لنا من دراسة الأستاذ جان فونتان المذكورة، أن أغراض الإبداع الأدبي التونسي، في الفترة الممتدة من 1956 (وهو تاريخ استقلال البلاد) إلى سنة 1994 (سنة وضعه للدراسة إلى استقينا منها المعلومة) إن إهتمامات المبدعين التونسيين في ميداني الشعر والسرد بأنواعه (عما فيه المسرح) لم تخرج عن ثلاثة أغراض وهي (أ) العلاقة بين القرية والمدينة و(ب) رمزية ثنائية المطر والنور و(ت) حتمية الجنوح للتغلب على الجوع.

كما لا نظن أن أدباء البلاد العربية الاخرى قد ركزوا في انتاجهم على أدب الرحلات، ذلك أن عملية إحضاء وتكميم تدلنا على أن رصيد العصر الحديث في الأدب العربي من أدب الرحلات، إنما هو رصيد القرن 19 م



وليس رصيد القرن 20م وذلك كما يلي :

أ- الإتجاه إلى أوروبا وتركيا

- رحلة سليم بطرس المطبوعة سنة 1856 "الزهة الشهية في الرحلة السليمية" الآتية

- رحلة لويس صابونجي الرحلة النحيلة، المطبوعة سنة 1874.

- رحلة نخلة صالح، سنة 1876 "الكثر المخبأ للسياحة في أوروبا

- رحلة محمد الشريف رحلة إلى أوروبا المطبوعة سنة 1888.

- رحلة ديمتري خيالي سفر السفر إلى معرض الحصر" المطبوعة سنة 1891.

- رحلة توفيق حسن توفيق "رسائل البشرى في السياحة وبألمانيا وسويسرا" المطبوعة سنة 1891.

- رحلة أمين فكري ارشاد الالبا إلى مجامع أوروبا" المطبوعة سنة 1892.

- رحلة على أبو الفتوح سياحة مصري في أوروبا" المطبوعة سنة 1900.

- رحلة فرنسيس مراش (1836م - 1873م) إلى باريس

- رحلتنا أحمد زكي (1867م - 1934م) أ) الدنيا في باريس وب) سفر إلى المؤتمر.

- رحلة محمد كرد علي (1876-1953م) غرائب الغرب

فضلا عن رحلته الحجازية "الرحلة الأنثوية إلى الاصقاع الحجازية وكنا قد رأينا قيام "الرحلة الأندلسية من طرف الشرقيين مع محمد لبيب البتوني، وهذا يعني أن أدب الرحلات في العصر الحديث فضلا عن أنه أدب القرن

19 أكثر من كونه أدب القرن 20 فإنه لم يقطع مع الحنين إلى الماضي، حتى بعد أن أنجز ذلك المنعرج الحاسم والذي طوع بمقتضاه أدب الرحلات إلى أغراض الحرية والتقدم والاصلاح عموماً، لا بل أن محمد كرد علي، سابق الذكر، له "رحلة حجازية" ... وهي من ذلك النوع من الرحلات الذي رأيناه، مع محمد السنوسي يحقق فريضة الحج من جهة أولى، ولكنه، وفي نفس الوقت يخدم أغراض التقدم والاصلاح.

والواقع أن كثيرين من الأدباء قد انجزوا رحلات إلى بلاد الغرب لكنها لم تقترب بانتاج أدبي يعطي أصحابه صفة "أدباء الرحلات" فلقد زار مارون نقاش" سابق الذكر أوروبا، وزارها عبيد اسحق، أيضاً، وقد فازت فرنسا بنصيب الأسد، إذ قد زارها كل من ابراهيم المويلحي (1846م - 1906م) الذي كان قصد مدينة باريس ومصطفى كامل (1874 م - 1908) الذي زار تولوز (او طولوشة / بلاط الشهداء) كما كل من محمد المويلحي (1868-1903) ومحمود سامي البارودي (1839-1904) اللذين زارا فرنسا عموماً أما إيطاليا فقد رحل إليها كل ابراهيم المويلحي، سابق الذكر الذي زار مدينة نابولي Napoli وكان محمود سامي البارودي سابق الذكر قد زار انتقلترا .. وكان الشيخ محمود قبادو قد زار إيطاليا في النصف الأول من القرن التاسع عشر لكن أشعاره التي خلّد بها رحلته هذه لم تتعرض إلا لحياته في تركيا.

وفي اتجاه الشرق، فإن دار الخلافة العثمانية قد استقلت الادباء مثل محمود سامي البارودي و ابراهيم المويلحي سابق الذكر. إلا كل هؤلاء لم يدونوا رحلاتهم في كتب، وربما نشروها أو أن بعضهم قد نشرها على صفحات الجرائد مثلما رأينا ذلك في تونس، حيث ان الكتاب

المتفنين حول جريدة، الحاضرة قد عمدوا إلى ذلك، أمثال محمد بن الخوجة سابق الذكر، والشيخ محمد حضر حسين (السعادة العظمى) أو سعيدا أبي بكر (مجلة تونس المصورة) .

### ت- الاتجاه إلى غير أوروبا الغربية وتركيا عموما

إذ كان الاتجاه إلى غير البلاد الأوروبية في أدب الرحلات نادرا ويعتبر حديثا نسبيا، وذلك سواء في العصر الوسيط أو في العصر الحديث.

وقد كانت الرحلة إلى روسيا في العصر الحديث، قد مثلت الاستثناء، وبكل المقاييس، وقد دشن عهدها المصري، الشيخ الأزهرى محمد عياد الطنطاوي (1810م - 1861م) للتدريس وكانت في إتجاه، "سان بيترسبورغ"، سنة 1840، وذلك لتدريس اللغة والأدب العربيين، وقد كان من مؤلفاته رحلة إلى روسيا بعنوان "تحفة الأذكىء بأخبار بلاد الروسيا" .. وهي كلاسيكية المجاور والمضامين، وذلك رغم تخصيص بعض الصفحات

للحديث عن التطور الحضاري الذي عرفته روسيا في عهد نيكولا الأول هذا، وتعتبر رحلة الكاتب التونسي على الشتيوي إلى الصين أمرا مثيرا، وقد حاولنا عبثا التوصل إلى معرفة شخصيته إلا أنه يبدو أن كل المصادر قد أجمعت على تجاهلها. ولا ننصّر ان أدب الرحلات لجيلي الاستقلالات العربية، والمخضرمين قد كان أحسن حال مما هو عليه العينة التونسية التي اتخذنا منها مثالا للدرس فلقد رأينا كيف أنه قد ارتدت إلى المضامين القديمة كالرحلة الحجازية هذا ويبدو أن المجالات العربية المعروفة بالجدية سواء بما تنشره من المواضيع أو بما هي عليه من الانتظام في الصدور احتراماً للقارئ ولنفسها، تلك المجالات قد حلت محل الكتاب والمخطوط في قسط كبير من أدب الرحلات.

فهذه مجلة "العربي" الكويتية قد دأبت على إدراج ركن "استطلاعات" وذلك منذ عددها الأول الصادر بتاريخ غرة ديسمبر 1957، والذين كانت حصصته للـ "القاهرة في منتصف الليل" وهو ركن يطلع القارئ على أحوال المدن العربية وقد دعت إلى أن "يسافر على الورق بين ربوع الوطن العربي ويكتشف قضاياها واركانه وجوانب من الثقافة والعادات والتاريخ والمكان فهو ينتقل بينها ويرى باللون وقد يكون لأول مرة جربة (تونس) أو سد مأرب / أو زيد أو ظفار أو موريتانيا، أو جيوتي أو تفارواورت ، جزيرة سوقطرة، أو أماكن يندر الوصول إليها أو يتعذر ، وتدرج هذه الاستطلاعات تحت شعار "أيها العربي أعرف وطنك"

ومثلها مجلة الهلال المصرية التي دأبت على تعريف القارئ بالمدن العربية مثل طنجة المغربية (عدد ديسمبر 2000) أو قرطبة الأندلسية (عدد أوت 2000) إلخ..

<http://Archivebeta.Sakhrat.com>

خامسا ، تأثير أدب الرحلات العربي للقرن 19 م في الفكر والأدب في

### المطلق

سنناقش فكرة الكاتب أبي زيان السعدي، التي مضمونها تأثر رواية الشاعر التونسي صالح السويسي (1878م- 1941) التي عنوانها "الهيفاء وسراج الليل" وهي أول عمل روائي تونسي (صفحتان 148-149) تأثرها بأفكار رجال النهضة في المشرق العربي وناقشها، بشكل غير مباشر، ومن خلال بيان صعوبة حصول ما يدعيه أبو أبو زيان السعدي وذلك باعتبار رجال النهضة أو رجال الإصلاح كما يعبر عنه لئن كانوا أبناء منتهى القرن التاسع عشر ميلادي ولئن لم يكونوا رحالة فإنه قد مثلوا حلقة الوصل بين

أدب الرحلات والأجيال العربية اللاحقة والمتلاحقة.

فإذ اتخذنا جريدة الحاضرة التونسية كعينة لهذا الفكر في نسخته التونسية فإننا سنقف على ذلك الزاد المتواضع والممثل والتفاعل الكتاب التونسيين مع رموز النهضة سواء كانوا من الرواد منهم على المستوى العربي من أمثال محمد عبده، أو كانوا رموزهم داخل البلاد التونسية وخاصة منهم محمد السنوسي.

وقبل المرور التي ذلك نلاحظ أن التفاعل بين النخبة التونسية ورشيد رضا مثلاً، قد كان منحصرًا في أسماء محدودة لإيكاد عددها يساوي عدد أصابع اليد الواحدة، وهم خاصة المشائخ الطاهر بن عاشور، سابق الذكر، والشيخ محمد شاكر المدرس بصفاقس، وستتخذ من الشعر التونسي مثال على ذلك.

خامساً، (1) تفاعل الفكر والأدب العربي في نهاية القرن 19م، وبداية

القرن 20 م مع الدعوة إلى "الإصلاح" و"الاحياء

أ- الشعر التونسي كمثال:

إن الشعر التونسي، لا يعكس تجاوبا كبير للمثقفين مع إهتمامات رجال الإصلاح والنهضة والاحياء !!

ففي العشرية الممتدة بين سنتي 1888 (نهاية القرن التاسع عشر الميلادي) و1911 (طالع القرن العشرين المنصرم) نشرت جريدة "الحاضرة" التونسية ثلاثمائة وثلاثة وتسعين قصيدا شعريا 393 قصيدا شعريا يمكن أن نصنفه على أنه شعر الأخوانيات والمناسبات عموما، من هتئة بولاية أو بنجاح أو بإزدياد مولود أو زفاف أو ختان، ورثاء... ولم نستطع أن نخصي إلا إحدى عشرة قصيد (11 قصيدا) فقط، يمكن اعتباره متجاوبا مع إهتمامات رجال

الإصلاح والنهضة بشكل أو بآخر وبعد جد أو بأخرى.

فلقد فاز الشيخ محمد عبده بنصيب الأسد وهي ثلاث قصائد

فلقد رحب بمقدمه إلى تونس الشيخ محمد الطاهر جعفر، المدرس بجامع

الزيتونة بتونس، والمتوفي سنة 1913 وذلك بقصيد منشور بعدد يوم 22

سبتمبر 1903 ومطلعه

وفود هناء مقدمك السعيد

كوفد الهناء يوم العيد

كما رثاه أثر وفاته، الشيخ محمد النخلي، سابق الذكر بقصيد منشور

بعدد يوم 8 أوت 1905، مطلعه.

مصاب به الاسلام باك موجع

وخطب به الإصلاح مززعج

كما أن شاعراً لم يوقع قصيده باسمه، قد رثاه ايضاً، في عدد يوم 22

أوت 1905 بقصيد مطلعه

لو كان قد ران يعود

فخارنا مامات عبده

كما أن الشعر قد تكفل برثاء رجال الإصلاح التونسيين فعلى اثره وفاة

خير الدين التونسي، سابق الذكر رثاه الشيخ المدرس بجامع الزيتونة، سالم

بوحاجب (1828-1924م) بقصيد نشر بعدد يوم 15 أفريل 1890، مطلعه

سهم المتية نافذ في الحين

ما أن يرد بشدة أولين

وقد قام الشيخ المدرس محمد الطاهر جعفر سابق الذكر، برثاء الشيخ

محمد بيرم الخامس، سابق الذكر، بقصيد منشور بعدد يوم 25 سبتمبر 1900

(ثم وقع اصلاحه بعدد يوم 02 أكتوبر 1900) مطلعه

### أحداث الايام ما قبل تقدم

#### ركن الشريعة أي ركن أعظم

وأخيرا، فإن السحاكم (قاضي غير ديني) حمودة تاج (1854م - 1920م)

قد قام برثاء، محمد السنوسي، سابق الذكر بقصيد منشور بعدد يوم 11

ديسمبر 1900، مطلعه

#### قف واعتبر يا امام العلم والأدب

#### ما للبصائر والأبصار من حجب

وهذا العدد من قصائد الرثاء، لم يبق إلا القليل من القصائد التي

خصصت للحديث عن قيم النهضة والتقدم جوهرها هذا ولقد فاز

"الفوتوغراف" بقصيدةين اثنتين.

فلقد كاتب الشيخ مناهم بوجاجيب، سابق الذكر قصيدا عن الفوتوغراف

نشر بعدد يوم 13 ديسمبر 1898 مطلعه :

#### لكم يا سادتي أهدي سلامي

#### وابدي صنع سرّ ذي اكتامي

أما، محمد السنوسي، سابق الذكر، فلقد قال عن نفس الاختراع في

قصيده الذي نشر بعدد، يوم 13 ديسمبر 1898، ومطلعه :

#### ترى صدق الصدى بين الكرام

#### يروق لهم ياهداء السلام

كما كتب محمد السنوسي، أيضا قصديا عن برج ايفل Tour Eiffel

المعلم الباريسي الشهير، وقد نشر بعدد يوم 18 جوان 1889. مطلعه

لم يبدع، ابدع مما كان مكان

### بما أفادته أزمان وأماكن

وبكل شكل مباشر، توجه الشاعر، صالح السويسي (سابق الذكر) صاحب أول رواية تونسية كما سبق بيانه توجه إلى الناس محرضا إياهم على النهوض من سباتهم رافعا بذلك شعارا من شعارات المصلحين ورجال النهضة وذلك بقصيدة منشور بعدد، يوم 02 أكتوبر 1900، مطلعها

أفيقوا يا بني الوطن المعلي

فقد طالت بكم سنة الرقاد

أما، محمد بوراوي، الكاتب بالادارة المالية، فقد احتفل على طريقته بمعلم اقتصادي دشن بمدينة "سوسة" رافعا بذلك شعارا آخر من شعارات النهضة والإصلاح، وذلك بقصيده المنشور يوم 23 ماي 1899، مطلعها

يا رب الوجوه المشبه بالبدر

أما حان وقت للتعطف والبشر

ب- الفكر التونسي كمثال

بعيد وفاة رشيد رضا نظم أصحاب "المجلة الزيتونية" حفلة تأمين حضره شكيب أرسلان ومحب الدين الخطيب وقد وقعت الإشادة بمناقب الفقيد والتذكير بأعماله الإصلاحية لكن يبدو إن تأثيرا غير مباشرا أكثر منه مباشر قد اشاع مناخا ملائما للكتابة الحرة والتي كانت تنشد التقدم

يتبع ....



## مفهوم الموت عند الصوفية

بقلم: الباحث محمد الرزقي

### المقدمة :

تعتبر مسألة الموت، من المسائل العويصة التي اصطدم بها الوعي الإنساني فرحته وفي أحيان كثيرة أذهلته فتسابق أهل النظر لفهم هذه الظاهرة وتفسيرها، حتى اعتبر شوبنهاور<sup>(1)</sup> فكرة الموت بأنها عروس الفلاسفة.

فقدّم العقل الإنساني تصورات عدّة حاولت تقديم إجابات ممكنة لمسألة الموت، إلا أنها إجابات عجزت على منح الإنسان الإطمئنان الذي يصبو إليه، فهي تحاول أن تفهم ظاهرة الموت ون أن تعطيه جواباً عن مصيره بعد الموت.

ولعل الأديان بشقيها الوضعي والسماعي، هي التي قدمت إجابات متكاملة ووفية في هذا الباب، ومن بينها الدين الإسلامي، كما برزت من داخل الإسلام طوائف وتيارات تمجد فكرة الموت، ونجد على رأس هؤلاء، تيار الصوفية، الذي اعتبر أن غاية الصوفي هي الموت، لأن في موته تكمن حياته، فكيف يستقيم هذا التضاد؟ ومتى كان الداء دواء؟

لكن قبل طرق هذا الأمر، لابد من التعرض لمفهوم الموت في الإسلام، فما هو التصور الإسلامي لمسألة الموت؟

(1) أوتشوبنهاور (1782 - 1860)، فيلسوف ألماني من أهم كتبه "العالم إرادة وفكرة"

## I - مفهوم الموت في الإسلام والتعريف بالصوفية :

### 1) مفهوم الموت في الإسلام

#### أ - الموت لغة :

الموت في اللغة هو ضد الحياة، والميت الذي مات ، والمات الذي لم يمت بعد، والميتة هي حال من أحوال الموت، يقال مات فلان ميتة حسنة، ومات فلان ميتة الجاهلية (2) .

وبصفة عامة يطلق الموت في كلام العرب على السكون، فيقال : "مات الرجل وهمد وهوم إذا نام ... كل ما سكن فقد مات ، وهو على المثل ماتت النار موتاً ، برد رمادها، فلم يبق من الجمر شيء، وماتت الرّيح ركبت وسكنت " (3) .

#### ب - الموت شرعاً :

يُعرّف الإسلام الموت على أنه السبب الناقل للإنسان، من عالم التكليف إلى عالم الخزاء، ولو أردنا رصد صورة الموت كما تظهر في النصوص التأسيسية للإسلام، لوجدنا القرآن يؤكد على فكرة محورية، وهي أن الموت قانون عام يستغرق جميع الكائنات الحية ولا يستثنى أحداً، ونقف على ذلك جلياً، من خلال آيات عدة، مثل قوله تعالى : " كل من عليها فان " (الرحمان 26) " كل نفس ذائقة الموت " (آل عمران 185)

كما يبين لنا القرآن، أن وقوع الموت يتم بعلم الله وإرادته، لذلك من أسماء الله الحسنى المميت، وتوجد جملة من الآيات في هذا الباب، كقوله

(2) ابن منظور، لسان العرب ج 14/147، دار صادر ، ط 3 / 2004 .

(3) م . ن . ج 14/148 .

تعالى : " الله يتوفى الأنفس حين موتها "(الزمر 42) أما من يياشر هذه المهمة فهو ملك الموت، الذي لم يذكر القرآن اسمه، ولا كيفية قبضه لأرواح العباد.

ولعل السنة النبوية هي التي فصلت مثل هذه المسائل، وتوسعت في ذكر أهوال الموت، بدء بالسكرات، ووصولاً إلى الغرغرة، وانتهاء بصورة الملائكة، التي أوكل إليها هذه المهمة وغيرها من المهام.

إلا أن ما يستوقفنا عند التعرض لهذه المراحل، هو تأكيد الرسول صلى الله عليه وسلم، أن العبد بعد موته وحمله على الأكتاف يسمع ويرى، ولا أدل على ذلك أنه خاطب عليه الصلاة والسلام، صرعى بدر من المشركين، فلما سأل على ذلك قال : " ما أنتم بأسمع لما أقول منهم "(4) "فالمت إذا وضع في قبره يسمع خفق نعال المشيعين إذا انصرفوا "(5)

وهذا ما جعل الموت يعزل الإنسان عن حواله وعن التحكم في أعضائه جسمه، إلا أنه يعزله عن معاني الحياة ذاتها، بما أنه يسمع ويرى ويشعر، حتى أن الفقهاء يضعون من شروط الماء الذي يغسل به الميت أن يكون دافئاً، لا اعتقادهم أن الماء الحار أو البارد يتأذى منه الميت.

فالموت هو المخططة الفاصلة بين حياة دنيوية معدومة وحياة آخرة مطلقة، فالحياة في الدار الآخرة تتميز بالخلود إذ لا يطاها الموت أبداً، وهو ما يجعل الموت يفقد سبب وجوده، لذلك يسلط الله الموت على الموت ، باعتبار أن الموت هو من خلق الله ، وهو القائل " الذي خلق الموت والحياة "

(4) صحيح مسلم، ص 1418، مكتبة الإيمان، د.ت .

(5) م . ن ص 1417 .

(الملك 2) ، ويصور لنا الحديث النبوي الذي أخرجه مسلم في صحيحه،  
مراسم اعدام الموت يوم القيامة، إذ يجاء به على صورة كبش أملح " فيومر  
به فيذبح ثم يقال يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا  
موت " (6).

فالمعنى اللغوي والاصطلاحي يلتقيان في شرح دلالات الموت، وهو  
سكون الجسد وتوقفه عن الحركة، فهل أن هو الذي تتبناه الصوفية وترضاه  
لنفسها ؟ لكن من هم الصوفية أصلاً؟ وكيف ظهروا ؟

## 2) التعريف بالصوفية :

### أ- الظهور التاريخي :

يعود ظهور الصوفية في التاريخ الإسلامي إلى أوائل القرن الثالث  
للهجرة، ويعمل ابن خلدون ذلك، أن بعد انقطاع زمان الصحابة والتابعين  
وشهزير المدع وميل الناس إلى الدنيا " اختص المقلون على العبادة باسم  
الصوفية " (7).

ولا يشهد لهذا الاسم في العربية قياس ولا اشتقاق، وكل الأقوال  
التي حاولت تفسير أصل هذا الاسم ردها الأدلة اللغوية والتاريخية، إلا أن  
هناك رأى لحظي بإجماع عدد هام من الباحثين قديماً وحديثاً، وهو نسبة هذا  
الاسم إلى الصوف " لأنه يقال تصوف ، إذ لبس الصوف، كما يقال  
تقمص ، إذا لبس القميص " (8).

### ب- ماهية التصوف :

(6) صحيح مسلم ، ص 1409 .

(7) ابن خلدون، المقدمة، ص 517، دار الجيل، د.ت .

(8) عبد القاهر السهروردي ، عوارف المعارف، ص 83، دار الفكر ، د.ت .

إن الحديث عن الماهية، يتعلق أساساً بالحديث عما هو ثابت وجوهري، مما يغنينا عن التعرض للمسائل الفرعية والعرضية، والمسماة عند الصوفية بألوان الترية، والتي تخضع للمتغيرات الزمانية والمكانية.

لكن الظفر بتعريف جامع مانع للتصوف، ليس بالأمر اليسير، لأن كل صوفي تقريباً يتفرد بتعريف خاص به، لأن كل واحد منهم انطلق من حاله ومقامه دون أن يحيط بكل معاني التصوف. وعموماً فغاية التصوف، هي تهذيب النفس وتنقيتها وترقيتها، لذلك هناك من يرى أن الصوفية هم الفقهاء على الحقيقة، لأنهم يعملون بما يعملون، وأن " اسم الفقه في الزمن الأول يطلق على علم طريق الآخرة ومعرفة دقائق النفوس " (9).

وهو ما جعل بعضهم يضع التصوف ضمن صميم العلوم الشرعية، ونجد من أبرز هؤلاء، جلال الدين السيوطي والعز بن عبد السلام، وعبد الرحمان بن خلدون، وهذا الأخير يجعل علوم الشريعة على صنفين " صنف مخصوص بالفقهاء وأهل الفتيا وصنف مخصوص بالقوم في القيام بهذه المجاهدة ومحاسبة النفس عليها. (10)

ومثل هذا التعريف يجعلنا نقص من هذا البحث، أرباب التصوف النظري أو الفلسفي، أمثال ابن عربي، وابن سبعين، يضاف إليهم كل من خرج عن ظاهر الكتاب والسنة مثل الحلاج (11) ونكتفي بأقطاب التصوف

(9) عماد الدين الأموي، حياة القلوب، المنشور على هامش فؤاد القلوب، ج 2/263، دار الفكر

، د. ت.

(10) ابن خلدون، المقدمة ص 517.

(11) أبو الفتح الحسن بن منصور الحلاج، فارسي الأصل، نشأ بالعراق، ادعى أمور عظيمة، أقيم عليه الحد بسببها سنة 309 هـ /

السني، الذين عرفوا بالصحو والاستقامة وبرعوا في شتى العلوم الشرعية، مثل الجنيد وعبد القادر الجيلاني، والغزالي، وأبو الحسن الشاذلي وغيرهم كثير.

## II - حقيقة الموت عند الصوفية :

إن عقيدة الصوفية في مسألة الموت، هي نفسها عقيدة أهل السنة والجماعة، فهم يؤمنون بإيماناً تاماً بمفهوم الموت عندهم تحتل مكانة مركزية، إذ يقوم منهجهم في التربية على تذكير النفس بختمية الموت، حتى تزهد في الدنيا.

فالموت هو بمثابة السوط بيد الصوفي، يقود به النفس في صعيد الطاعات، إن هي فترت أو ملت، حتى أن بعضهم حفر قبراً في بيته، يضطجع فيه كلما أحسّ بضعف إرادته وميلها للدنيا<sup>(12)</sup>، إلا أن الصوفية يقررون وجود محطة أخرى تسبق الموت الطبيعي، ألا وهي محطة الموت الخاص، لذلك يقول عبد القادر الجيلاني "عليكم بالموت الخاص، قبل الموت العام"<sup>(13)</sup>.

فما معنى الموت الخاص ؟

### 1) مفهوم الموت الخاص :

#### أ- قمع الشهوات الحسية :

من معاني الموت الخاص عند الصوفية، هو قمع النفس وحرمانها من شهواتها ورغباتها واجبارها على ترك عاداتها ومألوفاتها، لذلك نجد الجرجاني

في تعريفاته يورد معاني عدّة للموت في " اصطلاح أهل الحق " ، ومنه الموت الأحمر وهو مخالفة النفس والموت الأبيض وهو الجوع والموت الأسود وهو احتمال أذى الخلق (14)

فأولى خطوات تحقيق الموت المعنوي في نظر الصوفية، يتمثل في حرمان النفس من متعتها الحسية ، كالترفه في الأكل واللباس والسكن والنكاح والمركوب، والاكتفاء بما هو ضروري وموجود، فالقوم يأخذون من الدنيا " تزودا لا تنعما " (15) ، فلا يأكلون تلهذا بل أكلهم أكل المرضى ونومهم نوم الغرقى كما قال عبد القادر الجيلاني.

فلو أخذنا مثلاً مسألة الأكل عند الصوفية والتي تعدّ رأس كل الشهوات لوجدنا أن غايتهم من الأكل هي التقوي على العبادة، لذلك فهم يكتفون ببعض اللقيمات التي تقيم أصلهم، ويحذف بعضهم حدّد عددها بخمس (16) وصنف آخر " وصلوا إلى أكل لقمة واحدة كل يوم وليلة وبعضهم وصل إلى ثمرة أو لوزة أو زببة " (17).

ومن فوائد الجوع عندهم أنه يمنع النوم ، وهو ما يجعل النفس طيّعة في العبادة، فلا تنام الأغلبية، ليتصل ليلها بنهارها، والأمر نفسه ، ينطبق على سائر الشهوات الحسية الأخرى، مثل شهوة الجماع، فمن كان يشتكي الجوع، فلن يفكر في شهوة الجماع، أو يجد قوة على الكلام. فالجوع عند الصوفية هو بمثابة العقال، الذي يمنع الشهوات من التراقص أمام

(14) الجرجاني ، التعريفات ص 232، دار الكتب العلمية ط1/2000

(15) الجيلاني ، الفتح الرباني ، ص 108

(16) الشعراني، الطبقات الكبرى، ص 461، دار الكتب العلمية ط1/1997.

(17) الشعراني، الأنوار القدسية، ص 56 ، مكتبة المعارف، 1993 .

المريد، حتى لا تضعف إرادته أو تشوش حضوره بين يدي الله.  
 والتحكم في الشهوات الحسية عندهم، هي مقدمة للقضاء على  
 الشهوات القلبية، ويرون قلوب جميع البشر، باستثناء الأنبياء والرسل لا تخلو  
 من هذه الأمراض.

### ب- قمع الشهوات القلبية :

يرى الصوفية أن الشهوات القلبية عديدة، إلا أن أبرزها هو الكبير  
 والعجب وحب الرياسة والظهور، ودواءها يتمثل في إسقاط جاه النفس  
 وإجبارها على التواضع لغيرها وتكليفها من الأعمال ما لا ترضاه، وهذا  
 أحمد بن عجيبة - المتوفى في بداية القرن الثامن عشر - وهو فقيه مدينة  
 تطوان المغربية، وأحد أهم أعلام الصوفية المتأخرين، يقص علينا ما لقيه في  
 طريق القوم فيقول: "كنت حائزاً لرئاسة العلم، معظماً عند الخاص والعام،  
 نتردد إلى الولاة في الشفاعة".<sup>(18)</sup> وبعد أخذه العهد عن شيخه، خلع لباس  
 العلماء، ولبس المرقعة ووضع السبحة في عنقه، ثم أمره شيخه بالتسول،  
 فقال: " ما رأيت في الدنيا أصعب منه ولا أجهز لأوداج النفس منه ...  
 وكنت أتعمد به أهل الإنكار ... أكثر من غيرهم لأستخرج منهم ما تموت  
 به النفس، وكنت أتعمد به أيضاً من كان يعظمي وأقاربنا أكثر، وكنت أُلح  
 في السؤال عليهم وأظهر لهم الرغبة في الدنيا قصد الإخلاص وقتل النفس"<sup>(19)</sup>  
 والمواظبة على هذه الأعمال، هي التي توصل الصوفي إلى مرحلة لا يرى  
 لنفسه فضلاً على أحد لذلك يقول أحدهم "من ظن نفسه خير من نفس

(18) أحمد بن عجيبة، الفهرسية، ص 53، دار الفد العربي، ط 1/ 1990.

(19) م. ن ص 54 - 55.



فرعون فقد أظهر الكبر" (20) فأنى للصوفي في نظرهم أن يتكبر وقد خرج من مجرى البول مرتين" (21).

### ج- إزالة حظوظ النفس وتطعامها :

إن الصوفية يعتبرون معركتهم مع النفس، معركة مفتوحة لا تنتهي، وإن استقامت النفس، لأن الاستقامة قد يكمن فيها خداع كبير، أن توهمه فضلها على غيرها، أو تصبح متشوفة إلى أن يطلع الخلق على صلاحها، ليصبح محل تترك وتبحيل، لذلك سن للصوفي عندهم الترحال، حتى لا يستأنس الخلق به، ولا يستأنس هو بالمكان وأهله.

كما يجب على المرید أن يردّ جماح نفسه، إذا تطلعت للكرامات، لأن الكرامة، قد يكمن فيها استدراج كبير، ويرون أن على الصوفي الاستحياء من الكرامة كما تستحي المرأة من حياضها، لذا عليه سترها واحفاؤها، وإن ظهرت على يديها، حتى لا يفطن لنفسه من خلال افتتان الناس به والتفافهم حوله، وأفضل كرامة عندهم هي الاستقامة على منهج الكتاب والسنة، لذلك يقول العزّ بن عبد السلام : " أعلم أن أجل الكرامات التي تقوم للأولياء التوفيق للطاعات والعصمة عن المعاصي والمخالفات" (22).

ومحاصرة تطلعات النفس، لا تقف عند هذا الحد بل تمتد لتشمل جملة من التطلعات الأخرى والتي أجمع عامة المسلمين، على أنها تطلعات محمودة مثل الرغبة في دخول الجنة أو الخوف من النار، إلا أن الصوفية لهم رأي آخر، إذ يطرحون سؤالا افتراضيا هو الآتي، لو أن الله لم يخلق جنة ولا

(20) السلمي، طبقات الصوفية، ص 105.

(21) الغزالي، الأحياء ج 3/ 358.

(22) العز بن عبد السلام، حل رموز مفاتيح الكنوز، ص 128 المكتبة الأزهرية للتراث، د.ت.

نارا، أليس جديرا بالعبادة، فغاية الصوفي هو معرفة الله دون سواء، "فستان ما بين همة الحور والقصور وبين همة رفع الستور ودوام الحضور" (23). ولا يعني هذا أنهم ينكرون أو يشنعون على من يطلب الجنة، كما يتحلى للبعض، وإنما يعتبرون مثل هذه الهمة نقصا في حق الصوفي الساعي إلى الكمال.

بل أنهم يرون أن المريد لن يصل إلى معرفة الله، حتى تنقطع عنه شهوة الوصول (24)، فيذكر الله حبا فيه وشوقا إليه، فإن صدق في ذلك وأكثر من ذكره، فقد ينقله المولى من ذكر مع حضور إلى ذكر مع غيبة عما سوى المذكور وهو ما يسمى عند الصوفية بالفناء.

فما معنى الفناء؟ وما علاقة الذكر بالفناء؟

## 2) معاني الفناء:

أ- الذكر من مقدمات الفناء <http://Archi>

يعتد الذكر عند الصوفية روح التصوف، والركيزة الثابتة عند جميع شيوخهم، فهو خصلة مميزة لم يطلها التغير رغم تغير أشكال التربية عندهم "فهو منشور الولاية" (25).

وإن كان الذكر يطلق على الصلاة وقراءة القرآن والتسبيح والدعاء والشكر والطاعة بوجه عام، فإن مقصود الصوفية بالذكر، له معنى مخصوص، وهي طريقة معينة يردد بها الصوفي لفظ الجلالة "الله" بالمد والتعظيم، ويسمونه الاسم الأعظم الجامع لكل الأسماء، باعتبار أن جميع

(23) أبو مدين الغوث، أنس الوحيد ونزعة المريد، ص 76، دار الكتب العلمية، ط1/2004.

(24) ابن عطاء الاسكندري، لطائف المنن، ص 135، دار الكتب العلمية ط1/د.ت.

(25) الشعراي، الانوار القدسية ص 35.

الأسماء الحسنى هي للتخلق، أما اسم الله فهو للتعلق، وهناك صنف آخر من الصوفية يفضلون صيغة " لا إله إلا الله للمبتدى "، فإذا أثبت هذا المبتدى صدقه، يؤذن له في ذكر الاسم والأعظم.

وأول مراحل الذكر عندهم هي ذكر اللسان أي أن يجري الذكر على لسانه جهرا، مع الكثرة العددية، وأثناء الذكر يحاول المريد طرد الخواطر المتأتية من النفس والشيطان، وأن يجاهد نفسه حتى لا يغلبه النوم، خاصة أن هناك شيطان حسب اعتقادهم يسمى " الكحيل " هو الذي يجلب النوم للذاكرين.

فإذا ثابر المريد وبدأ يحلو مرآة قلبه من صدأ الذنوب، ينتقل إلى المرحلة الثانية من الذكر وهي **ذكر القلب**، القائمة على الحضور والتلذذ بالذكر إلى درجة يصمت معها اللسان ويبقى القلب ذاكرة الله، وهي التي يسميها الصوفية مرحلة الفتح أو الأنوار <http://Archive.org>

ويلخص ابن عطاء الاسكندري للمريد مختلف مراحل الذكر، مذكرا إياه أن لا ينقطع عن الذكر لعدم الحضور فيه فيقول: " لا تترك الذكر لعدم حضورك مع الله فيه.. فعسى أن يرفعك من ذكر مع وجود غفلة إلى ذكر مع وجود يقضة ومن ذكر مع وجود يقضة إلى ذكر مع وجود حضور، ومن ذكر مع وجود حضور، إلى ذكر مع غيبة عما سوى المذكور، وما ذلك على الله بعزيز <sup>(26)</sup> .

وهذه الغيبة عما سوى المذكور هي التي تسميها الصوفية بالفناء،

فما معنى الفناء؟

(26) ابن عطاء الاسكندري، الحكم، ص 5.

### ب- مفهوم الفناء :

إن الفناء عند الصوفية يعني استغراق السالك في عظمة الله، فلا يشعر بنفسه ولا شيء من لوازم نفسه، - فضلا عن الأكوان- إذ هو غائب في " الذكر عن الذكر ويستغرق بمذكوره عن الرجوع إلى مقام الذكر" (27)، فهو مستهلك في الله بالكلية.

والفناء حالة روحية ذوقية، لو عبر عنها السالك لسقط في الإهمام، ولفتن من حوله، لأن الألفاظ تعجز عن التعبير عن الأحوال، وهو وضع حالات الشعور عامة، فلا يمكن لشخص متألم أو منتشي أن يجعل الطرف المقابل يتمثل ما يشعر به ويعيش معه الإحساس نفسه، خاصة إذا كان الرصيد اللغوي يفتقر إلى مصطلحات متعارف عليها، وضعت للتعبير عن هذه الحالات وربما أخرجته إحدى هذه الكلمات عن دائرة الشرع أصلا.

ويقول الغزالي : "كل ما كان ذوقا، لا يكشف بالقول ولا بالكتابة، فلا تعلمه إلا إذا وصلت إليه، وما مثلك في ذلك إلا كمثل من جهل الحلاوة أو المرارة مثلا وأراد أن يكيفه بمجرد القول والكتابة، فلا يقدر البتة" (28)

فهناك بون شاسع بين النظر في المعاني وأن يعيش الإنسان هذه المعاني، مثل الفرق بين من يعرف حدّ الحب، وبين من يعيش حالة الحب.

لذلك كما قال الحلاج : " ما في الجبة إلا الله "، كان في هذا المقام، فهو ذاهل عن كل ما حوله حتى عن نفسه، فهو لا يرى في الوجود إلا الله، فحال كحال المخمور الذي ملكه سكره فلا يدري ما يفعل أو ما

(27) السلمي ، طبقات الصوفية ص 447 .

(28) مجموعة رسائل الغزالي ص 170 .

يقول، ونجد أن ابن القيم الجوزية في مدارج السالكين، والذي يصنف ضمن خصوم الصوفية يبرر هذه الحالة إلى جانب قول البسطامي " سبحاني " إذ يرى أن كل واحد من هؤلاء مغلوب على أمره باعتبار أن الأحوال تهجم دون استدعاء، فهو معذور مثله مثل النائم والمغمى عليه والمجنون<sup>(29)</sup> مما يؤدي إلى غياب العقل الذي يعدّ مناط التكليف وبالتالي يرفع عنهم القلم.

كما يؤكد الصوفية على ضرورة أن يملك السالك حاله لا أن يملكه الحال، فلو حصل وملكه حاله كما هو شأن الخلاج فهي علامة ضعف عندهم، ربما جعلت السالك عبداً لذلك الحال، وأمثال هؤلاء من أرباب الأحوال هم الذين ألحقوا بالتصوف قهمة الحلول والاتحاد، لذلك قال الغزالي : " فكلام العشاق في حال السكر يطوى ولا يحكى " (30).

وقد أكد الصوفية على ضرورة تخطي المريد لعقبة الفناء، ويتمثل هذا التخطي عندهم، في الاستنجاد بالطرف المقابل وهو الفرق، والفرق يعني الإشارة إلى الكون والخلق، فلا يقول المريد، ليس هناك موجود إلا الله وإنما يكون الفرق على لسانه والجمع في وجدانه كما قال أبو الحسن الشاذلي.

وهو ما يجعلنا نؤكد على أن الفناء هو مرحلة من مراحل السير عند الصوفية، يعتبر فيه الكثير من السالكين، إلا أنه تعقبه مرحلة أخرى ألا وهي مرحلة البقاء، والتي من صفاتها الصحو وتميز السالك بالثبات وامتلاكه لحاله، ووعيه بأفعاله وأقواله وهي مرحلة النضج عند الصوفية كما يمكن أن

(29) ابن القيم الجوزية، مدارج السالكين، ج 1/ 176 دار الكتاب العربي ط 1/ 1990 .

(30) مجموعة رسائل الغزالي ص 276 .

نسميها مرحلة الحياة، لأن الصوفي أمات نفسه فأحياه الله بقربه ومتعته بذكره وأبدله صفات محمودة بدل صفات نفسه المذمومة، ومن هنا تبدأ مقامات أخرى عند الصوفيين مثل الأنس بالله وتختتم هذه المقامات بمقام المعرفة الذي يعتبر نهاية سير المرید، لذلك يعتبر لقب عارف أعلى درجة يمكن أن ينالها السالك عندهم، لذلك فهم يقولون السير إلى الله ينتهي والسير في الله لا ينتهي، وإذا وصل السالك إلى هذه الدرجة يحق أن يطلق عليه اسم صوفي في عرفهم، لذلك فرق بعضهم بين الصوفي الذي أوصلته الرعاية الإلهية وهمة العالية إلى الله، وبين المتصوف الذي مازال في مرحلة التكلف والمجاهدة ولم يصل بعد درجة الصفاء.

#### خاتمة:

وهكذا يمكننا القول أن نظرة الصوفية، تعتبر نظرة إيجابية، لأنها تحرر الإنسان من سائر شهواته الخسيسة والمعنوية وتجعله يواجه مسؤولياته تجاه نفسه، فتضع إرادته موضع الاختبار، حتى يختار نوع الحياة التي يريد.

فمفهوم الموت الخاص عند الصوفية، لا يمكن إدراك مذاقاته والأحوال التي يحس بها السالك، وهذه التجربة المعاشة، أضفت على مفهوم الموت طابعا حيويا مفعما بمعاني الحياة، ونجحت في نزع الطابع الثقيل والكتيب للموت، فنهاية المجاهدات ليست، إعداما وإفناء للذات البشرية، وإنما إيذان بانبلاج فجر مرحلة جديدة، تتميز بالتقيض والتفكر واتساع عين البصيرة، والتي يمكن أن نسمي جميع معانيها اختصارا بمرحلة الحكمة والحكمة في غاية الإنسان عامة- والمسلم على وجه الخصوص.

فما هي مميزات الحكمة الصوفية ؟

## العقل في الإسلام

### قرون التأسيس بين نور القرآن وظلمة الاستبداد

(1)

الدكتور: الضاوي خوالدية

لعلي لا أجنب الصواب إن قلت إن حضارة الإسلام أغزر الحضارات نصوصاً تأسيسية ونصوصاً تراثية وفكرية وفلسفية وأدبية... وإن كمّ الكتابات على تلك النصوص التأسيسية والتراثية مهول غير أن هذه الكثرة الكمية لم تتعدّ في أغلبها ظاهر النصوص وقشرها العليا لفقدانها المنهج والموضوعية العلميين فبقيت الكتابات تجتر الكتابات وأصبحنا نحن - بالتالي منذ أكثر من ألف سنة - اجترارا لا جترار حتى ضمّرنا وطمع فينا القاصي والداني وأذلانا وهزأ بماضينا وحضارتنا قارئين إياها قراءة تلي رغبته لأننا بقينا خارج تيار العقل الخلاق أي خارج زمان الحداثة، على أن قراءة علمية عميقة موضوعية حفرية لنصوصنا التأسيسية وبعض النصوص التراثية قد تكشف عن أن أمة العرب المسلمين والمسلمين أعقل الأمم أصولاً لأن ما أولاه الإسلام للعقل بمفهومه الحديث ودوره ولل فرد العاقل ووظيفته ولل جماعة العاقلة وفعلها في الكون يفوق كل الحضارات القديمة وحتى الجديدة ولعل الإمام بـ : "عقل" في القرآن يفصح عن أن حكّمي بأن أمة الإسلام "أعقل الأمم" لا مبالغة فيه فأيات: يعقلون، تعقلون، عقل (أفعالا لا

أسماء) تسع وأربعون ورد فيها الفعل: يعقلون لا المصدر عقل لأن عقل فعل/ حدث في الزمان وكذلك فعل العقل أما عقل فإسم بدون زمان أي إسم لجهاز لذلك لم يذكر القرآن العقل وإنما ذكر: يعقل بكثرة وعقل بندرة إذ فعل العقل لا يكون إلا في الزمان (الحاضر المفتوح) وعقل في القرآن تعني فهم بعمق وروية وإجادة وتجرد الوجود وذاته والبيئة المحيطة ذات الأبعاد المختلفة والآثار وتاريخ الأمم السابقة والأديان للخلوص إلى استنباط القوانين الكلية المنظمة للكون والحياة والذات والآخر (إذ العقل باختزال هو القوة كبرى المؤسسة على الحواس والتجربة والمتجهة إلى الخارج والداخل والتي تنكب أساساً على البحث عن الترتيب بين الحوادث لمعرفة أسبابها وشروطها) ومن لم يعقل /يفقه/ يفهم هذا النظام الكوني ومآلها وآثارها غير عاقل ووبخ بشدة: 15 آية مريمه بـ: "أفلا تعقلون" (السلوك الصائب، آيات الله، الكتب السابقة، الدنيا والآخرة الرسول الخاتم، الرسل السابقين، وظيفة الرسول، القرآن، المشركين، آثار نائلي عقاب الله، حياة الإنسان...) قال تعالى: "أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون (الأنعام) (الأنبياء آية 67)، وقال تعالى: "وهو الذي يحيي ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون" (المؤمنون آية 80). أما الآيات المختومة بـ: "لعلكم تعقلون" (التي يرى بعض المفسرين أن لعل تعني "حتى" و"ل") وكي) فعدها 8 قامت على دعوة الله الإنسان إلى عقل آيات الله المبدعة كما تتراءى له في كل كائنات الدنيا الحية منها والجامدة (الأنعام



آية 78) ومضامين القرآن (الحج آية 5 والمؤمنون آية 13-14) وحياة الإنسان: قال الله تعالى: "إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون" (يوسف آية 2) وقال تعالى: "... كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون" (النور آية 61) وقال تعالى: "اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون" (الحديد آية 17). والآيات المختومة بـ "يعقلون" المثبتة: 9 تتضمن ما أودع الله في الكون كي يعقله العاقلون من ذلك : هلاك الله الضالين السابقين والأرض خلقا ونباتا والرياح والسحب والنجوم وآيات الله الأخرى قال تعالى: "إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون" (البقرة آية 164). والآيات المختومة بـ : لا يعقلون المنفية 9 يتوعد فيها الله الذين لا يعقلون لعدم اعتبارهم بآبائهم الكفرة وسخريتهم من آيات الله ورسله والكاذبين على الله قال تعالى: "إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون" (الأنفال آية 22) وقال تعالى: "ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون" (يونس آية 42).

إن آيات "يعقلون" المستفهمة والمثبتة والمنفية التي ألمنا بجلها موجهة إلى الإنسان باعتباره إنسانا حراً مكرماً (الإسراء آية 70) مسؤولاً لا باعتباره مسلماً فقط لعلم الله أن الناس لن يكونوا جميعاً مسلمين وأن

الكون يعمره المسلم والكتابي والملحد (الحجرات آية 13) لكن الذي يعقل الطبيعة بكل أبعادها والتاريخ والحضارات السابقة سيعقل خالق الكون ودقة تنظيمه له فيؤمن بوحداية الله يرسله ثم الخاتم وقرآنه والإسلام وهذا التمشي هو الذي جعل الأوائل يسلمون والتابعين والمعاصرين ممن تربوا معتقدين ديانات أخرى.

إن العقل والعقل وحده المنمى المقدوح بآيات الله في الكون هو أساس الإسلام أي أساس حضارة ستمتها الرئيسية الحركة والسعي الحثيث المستمر للترقي بغية التقرب من الله وتعمير كون الله وهذه الثنائية المبتغاة لا تنتهي وربما لهذا السبب كان الله ينعي على الذين لا يعقلون ويعتبرهم غير مؤهلين ليكونوا بشرا قال تعالى: "ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون (البقرة 171)". لكن حث الله عباده على تشغيل عقولهم وجعل العقل فريضة أمّا (قال الرسول ص: قوام المرء عقله وقال دين المرء عقله ومن لا عقل له لا دين له وقال لكل شيء مطية ومطية الإنسان عقله(1) كانا بعيد اشتداد شوكة الإسلام أي تحرر الناس بفضل القرآن والإسلام من نير الأوثان وقهر الأقوياء الضعفاء والاستعباد والطبقية البغيضة والتقاليد الثقيلة والاستبداد... لأن تشغيل العقل تشغيلاً مثمراً لا يتأتى إلا في أجواء يكون الفرد فيها حراً مسؤولاً مكرماً آمناً مطمئناً وإذا لم تتوفر هذه الأجواء المساعدة على فعل العقل فالإسلام ورجال العلم والفكر والفلسفة يدعون الفرد الحر المسؤول

والجماعة إلى التضحية في سبيل توفير الظروف المواتية لتشغيل العقل وتأکید إنسانية الإنسان والأمثلة في تاريخنا لا تحصى قرآنا وسنة وأقوالا مأثورة ومضحين بأنفسهم ملحة كلها على الإنسان بأن يخرج من حالة القصور أي العجز عن استخدام العقل استخداما حرا (خارج قيادة الآخرين) لأن مسؤول عن قصوره وعلة ذلك ليس غياب العقل وإنما فقدان القدرة على اتخاذ القرار وفقدان الشجاعة على ممارسته دون قيادة الآخرين.

قد يتبادر إلى ذهن القارئ وهو يتتبع تحليلنا لمدلولات صيغة عقل سؤال عن عدم إِبْلاء أهمية لمدلولات صيغ أخرى وطيدة الصلة بـ: عقل كـ: علم وفكر وفقه... والجواب عندنا أن: علم خاصة تأتي في المرتبة الثانية بعد عقل لأن العقل سابق للعلم والعالم لا بد له من عقل والعقل ليس مشروطا فيه أن يكون عالما والآيات القرآنية التي تضمنت جذر: علم: 778 منها علم بمعنى عرف وخبر وعشر (علمت الشيء عرفته) (البقرة آية 60، 187 والأنفال آية 23، 66 والفتح آية 18) وعلمت بالشيء: شعرت به وعلمت الرجل خبرته ومنها علم بمعنى أحاط التي يشترك فيها الله بدون قدر باعتباره عليما وعلاما أي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء والذي أحاط علمه بجميع الأشياء باطنها وظاهرها دقيقها وجليلها على أتم الإمكان... والإنسان/ العبد قد يصبح عالما وعليما وعلامة إما بما علمه الله وهؤلاء هم الرسل والأنبياء خاصة وإما بمزاولة العلم والتعلم وطول ملاسته لهما فسيح عالما بفرع

أو بأكثر من فروع العلم في عصر معين أو في أكثر من عصر والعلم هنا ضد الجهل (النساء آية 113 والنحل آية 43 والزمر آية 9 والبقرة آية 251 والكهف آية 66...)، والآيات المتضمنة هذا البعد من عِلْمٍ عددها حوالي 100 مركزة على أهمية العلم والعلماء ودورهما في المعاش والمعاد والحث عليه والاستزادة منه والتحذير من استعماله فيما لا يفيد غير أن مقارنة بسيطة بين عقل وعلم تكشف عن أن مجال آيات عقل الحاضر غالبا ومجال آيات علم الماضي والعلم أداة للعقل يستعين بها مع ما يستنبطه من قوانين الحاضر في فهم هذا الحاضر ثم تغييره إلى ما هو أحسن، وأن العلم غالبا مستوعب العلم وليس منتجه (الأنعام آية 148) كمتعلم الرماية ليس صانع آلة الرمي ومتعلم الشطرنج ليس صانع آله... والعلم الذي لا يهمله عقل فعال سمته الإطمئنان وبجراحة الواقع العاقل قلق متمرّد ساع إلى التغيير فإذا اجتمع العقل القلق والعلم لدى فرد أصبح ليس عالما بمعنى مختزن العلم وإنما عالم بمعنى منتج العلم (وقد ينتج العلم العقلاء لا العلماء إذ أغلب منتجي العلم كانوا فاشلين في استيعاب العلم أثناء التعلم) وما دام عدد العقلاء العلماء قليلا كان العقلاء في مقدمة الثائرين في سبيل تحرير الإنسان وبناء الحضارات وكان العلماء موالين غالبا للأنظمة الحاكمة ولعل استقرار حالنا على نحن من تخلف راجع إلى كثرة علمائنا وقلة عقلائنا إذ "علمنا" تخلفنا ولم نعقله لأن عقل الشيء يتعدى الإحاطة به ومعرفته إلى فهمه والتحكم فيه ومواجهته ونقده ورفضه فتغييره.

يحسن بنا بعد هذا الاستطراد الذي حاولنا فيه أن نقارن باختزال بين عقل وعلم أن نطرح سؤالاً بديهيًا مفاده: لم تعمدنا سرعًا ذلك حجر الزاوية في حضارتنا وهو العقل؟ إن أسباب ذلك لكثيرة معروفة مشهورة فالإسلام هز بقوة واقعا أحكمت بناءه قرون من استعباد القوي الضعيف والظلم والقهر والقتل وامتهان كرامة الإنسان، (أجمل هذا الواقع قول جعفر بن أبي طالب نجاشي الحبشة: كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ويأكل القوي منا الضعيف فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلية الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء وهأنا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات... (2)، وأقام مكانه بناءً جديداً أساسه حق الإنسان أي إنسان في الحياة بكل مناحيها (الإسراء آية 33) وحقه في الحرية بكل صعداها (البقرة آية 255) وحقه في المساواة بكل أبعادها (النساء آية 1).

إن ما دكّه الإسلام اللاعقل وما بناه العقل الذي شيد دولة "مدنية فاضلة" في فترة وجيزة وشرع يشعّ على الأحوار ويعلمهم كيف يكون العقل سيداً مبدعاً وكيف يكون الإنسان إنساناً لكر: وفاة صاحب الرسالة العقلية عثرت مسيرة هذا العقل الذي لا يزال 'ي' العود إذ أن

اللاعقل ما برح نائما في ثنايا المجتمع فسادة الأمس والأشراف وأصحاب النفوذ وأهل المتع والمنافقون...الذين أصبحوا وعبيد الأمس متساوين في كل شيء ما نسوا ماضيهم لذلك ظهرت بوادر الصراع على خلافة النبي ص سريعا فوقع تجاوز الأزمة بيعة أبي بكر خليفة ثم خلفه عمر بدون مشاكل تذكر لذلك يمكن اعتبار الخليفتين الأولين خليفتين عاقلين راشدين لا لإجماع الأنصار والمهاجرين على توليها وإنما لما انتهجاه من سياسة شورى/ عقل ذات أربع ركائز: ثلاث منها القرآن والسنة والواقع والرابع العقل الحرّ الفردي والجماعي الفاحص المستنبط الأحكام من الثلاث والمراقب بدقة مدى التزام أولي الأمر بما تجمع عليه الأمة وأهل العقل والرأي فيها لذلك كان الخليفتان والعاقلان يشركان الناس في كل ما يتويمان فعله ويدعواهم إلى مزيد نقدهما وتوجيههما وتقويمهما باعتبارهما بشرين قد يصيبان وقد يخطئان بيد أن سياسة الأبوي بكرين العقلية لم تستمر بعد وفاقما فحصر عمر مستخلفه في واحد من ستة آثار امتعاضا لدى من يروا أنفسهم مؤهلين للخلافة قبل غيرهم ولدى الصحابة الآخرين الكثر ولدى غيرهم من المسلمين وقد تلا هذا الحصر أيام عثمان حصر في الشورى وحصر في العقل وحصر في تكافؤ الفرص وحصر في المساواة وحصر في الأعطيات...وبرزت أفعى الجهوية والقبلية فكانت الثورة العارمة وكان قتل عثمان الذي فتح باب جهنم على الأمة وكان الصراع الدموي بين علي ومعاوية ثم تفرّد معاوية بالسلطة وإعلان نفسه خليفة وسنّ وراثته

الحكم في ذريته وممارسته وخلفائه سياسة الاستئصال لكل مناوئ مهمما كان قدره السلافي والعقلي والعلمي والديني(3)، وبهذا أوقف العقل (إلا ما ندر وخاصة في مجال اللغة) عن الاشتغال وعوضه عقل الأسرة المالكة الذي ساد بقوة الحديد والنار، وانتقلت عدوى إيقاف حركة العقل إلى الفقه الذي دعا كبار رجاله إلى منع الاجتهاد (تشغيل العقل) بل أكد الإمام الشافعي مثلاً هذا بقوله: "فكل ما لم يأت به الرسول فهو من الهوى لأن العقل مضطرب إلى قبول الحق"(4)، وبضيف: "فالحسن والقبح الثابتان بالشرع هما مما يجبان بالأمر والنهي الشرعيين من غير أن يكون للعقل حظ في ذلك"(5)، طناً من هؤلاء الفقهاء أن لجم العقول يحفظ الدين والأمة والخلافة العربية الإسلامية من شرور الانحلال والتمزق والصراعات والتأثر بالحضارات الأخرى وجهلاً منهم بأن لا حافظ للإسلام وشريعته وأمته ومستقبله غير العقل قسيم الوحي إذ بالعقل يفهم الوحي وبالوحي يعظم العقل ولذلك أولى الله عز وجل هذه الأهمية للعقل وبث في قرآنه عشرات الآيات الموجهة لاستخدام العقل استخداماً يخلص به إلى نتائج عقلية: خلق الإنسان، علم الفلك، علم الجغرافيا، علم النبات... كما أودع في قرآنه آيات بل سوراً تكشف للإنسان أن الوحي نزل منجماً على الرسول في زمن محدد قبله وشرحه حسب مقتضيات الحاضر، وما إن توقف الوحي حتى برز بقوة قسيمه العقل/الرسول الخالد الذي يشدّ بالنواجذ على الوحي/النقل شدّه حاضره بكل أبعاده ليستنبط باعتقاد الإثنين قوانين الرقي بالإنسان فرداً

وجماعة وأمة باعتباره خليفة الله في الأرض وباعتبار "العلماء/العقلاء هم ورثة الأنبياء ورثوا العلم..." (6) و"أَنَّ الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها" (7)، ولعل قصة موسى والخضر لدليل صارخ على أن للعقل أهمية قصوى فموسى عالم بالشرعية لا يعرف غيرها والخضر عالم عاقل يعرف بعقله الواقع ويفهمه ويضع له الحلول (8)، وكذلك قصص أخرى من قبيل: ذو القرنين (9)...

وقد تكون سياسة منع العقل من العمل في مجالات السياسة والشرعية والإبداع والحرية والعدل والمساواة وباختصار تقرير الإنسان مصيره وقيامه بدوره المنوط بعهدته الإلهيا وشرائعيًا وحضاريًا حفزت مفكرين كبارًا إلى الإصرار على إنقاذ العقل العربي المسلم من التكلّس والتوقف عن الحركة بمحاولة التأسيس لمنهج عقلي يوصل منتهجه إلى الحقيقة التي ما اختلف عليها العقل والنقل ولن يختلفا لأن غير المعقول عقلا غير صالح شرعا من هؤلاء الكثر ابن المقفع (106-142هـ) والجاحظ (150-255هـ).

العقل لدى ابن المقفع:

**\*تعريف العقل:**

هناك من يرى العقل عقليين: عقلا مكونا أو فاعلا (أداة) وعقلا مكونا أو سائدا يقصد بالأول الملكة أو النشاط الذهني الذي يقوم به الفكر حين البحث والدراسة ويقصد بالثاني مجموع المبادئ والقواعد التي نعملها في الاستدلال (الثقافة) (10)، وهناك من يراه ضربا من النشاط



يعالج به الإنسان الأشياء على وجه معين أي قائم على العقل... وما دام الإنسان قد ركن إلى العقل فلم يعد بحاجة إلى سواه (11)... إن كانت التعاريف السابقة قد ركزت على العقل المنتج لا على العقل المنتج فإن لابن المقفع تعريفاً قد يكون طريفاً، لقد أقرّ بوجود العقل (الأداة) بالقوة لدى الجميع أما وجوده بالفعل (العقل المنتج في جدلية مع العقل الأداة) فلا يكون إلا بالتجارب والآداب يقول في هذا الشأن: العقل غريزة مكتونة في الإنسان كامنة كمن النار في الحجر والعود لا ترى حتى يقدحها قادح من غيرها يظهر نورها وحريقها فكذا سليقة العقل مكتونة في مغزها في القلب لا قوة لها ولا حياة بها ولا منفعة عندها حتى يعتملها الأدب الذي هو نماؤها وحياتها ولقائها (12)، فدعوة ابن المقفع إلى الاستنارة بالعقل (اثان لا ينظران: الأعمى والذي لا عقل له) لصالح معاش الإنسان ومعاذه هي تحميله مسؤولية مصير نفسه أو صنع وجوده الذي لا يكون إلا بالمعاناة والتدريب والمراس وهكذا تبرز الحضارات العظيمة.

### \* الفرد / الإنسان المأموم بالعقل:

لقد بدأ ابن المقفع - قبل تحديد ملامح الإنسان العاقل الذي يروم بناءه - بنقد مجتمع عصره قائلاً في ثلاثة مواضع على الأقل: إن الناس إلا قليلاً مما عصم الله مدخولون في أمورهم فقائلهم باغ وسامعهم عياب وسائلهم متعنت ومجيبهم متكلف وواعظهم غير محقق لقوله بالفعل وموعوظهم غير سليم من الاستخفاف والأمين منهم غير متحفظ من

إتيان الخيانة... يتناقضون البناء ويرقبون الدول ويتعاطون القبيح... مولعون في الرخاء بالتحاسد وفي الشدة بالتخاذل (13)، لم يفت تردّي مجتمعه السياسي والأخلاقي والعقلي في عزمه على إصلاحه بادئا بتمهيد يعتره أصل إصلاح الإنسان وبالتالي المجتمع حدد فيه ركني حياة الإنسان وهما الغاية من الوجود: صلاح المعاش والمعاد وأداة دركها العقل الصحيح ثم أولى الأداة عناية كبرى كتنميتها وشحذها بالأدب مساويا بين غذاء الجسم وغذاء العقل وبين الكد في طلب الرزق والكد في طلب العلم فمفضلا: أشد الفاقة عدم العقل ولا مال أفضل من العقل (14)، ثم خاطب المرء (بالتنكير) صاحب الغاية والوسيلة مبينا له منهج الحياة العقلية الذي مسلكه معاناة: فليأخذ له عناده وليعد له طول أيامه (15). ولعل مرنكرات هذا المنهج لا تخرج عن ثلاثة: أسلوب تعامل العاقل مع المحبّد للنفس والمبغض لها وأسلوب التربية الذاتية المستمرة وأسلوب التعلّم والتعليم:

- أسلوب التعامل العقلي مع المحبّد للنفس والمبغض لها: إن كان العاقل يشترك مع الناس في النظرة الأولى إلى ما يحب وما يبغض (لنفس) فإنه يختلف عنهم باستعمال عقله في تجاوز الظاهر (الذي قد يكون خداعا) إلى الكنه، والأحق بالطلب إذ قد يكون المبغض أولى، وشرطي تحقيق المطلوب منهما: الإمكانية-الإيجابي، وتنفيذ البصر بالعزم (بعد المعرفة بفضل الذي أودم وأنفع).

- أسلوب التربية الذاتية المستمرة: مخاصمة النفس ومحاسبتها والقضاء

عليها والإذابة لها والتكامل بها، وتفقد محاسن الناس وحفظها وإحصاؤها، ومصاحبة ذوي الفضل في العلم والدين والأخلاق، وعدم الحزن على ما فات.

-أسلوب التعلم والتعليم: السؤال المستمر- عدم استصغار شيء من الخطأ في الرأي والزلل في العلم والإغفال في الأمور- تغليب الرأي على الهوى- عدم الاعتداد بالعلم (الذي عنده)- من شروط معلم الناس (علم-دين) حبه المهنة وتقويمه نفسه في السيرة والكسب والرأي والأخلاق (فيكون تعليمه بسيرته أبلغ من تعليمه بلسانه).

-علاقة الإنسان المأموم بالعقل بالاجتماع:

إن كان تحديد سلوك العاقل تجاه نفسه وتجاه الآخرين قد انبثق تقريباً في معظم صفحات آثار ابن المقفع فإن التركيز على علاقة العاقل بالاجتماع كان بينا في الأدب الكبير: "المقالة الثانية": معاملة الصديق، إن هذه العلاقة "الثمرة" تقوم على مبادئ لا يستطيع تجسيمها إلا صاحب عقل/عاقل إذ تتطلب تضحية مادية معنوية، فانظر إليه كيف يرتب مكونات المحيط الاجتماعي ويرسم واجبات العاقل نحوها: أبذل لصديقك دمك ومالك ومعرفتك رفدك ومحضرك وللعمامة بشرك وتحننك ولعدوك عدلك وإنصافك، وبعد أن أجمل مقومات المحيط ولعرفتك رفدك ومحضرك وللعمامة بشرك وتحننك ولعدوك عدلك وإنصافك، وبعد أن أجمل مقومات المحيط الاجتماعي وشروط العلاقة المثينة المرتكزة على العطاء المادي والمعنوي من جانب العاقل قام

بالتبويب فالتفصيل:

أ/أدب المجلس: لا تنتحل كلام صاحبك وتروّ في الكلام وأصبّ الموضوع وإلا فاسكت واحرص على السمع أكثر من الحرص على الكلام ولا تدّع العلم.

ب/أدب الصداقة: لا تفرط في إخوان الصدق ولا تقاطع أحمك ولا تتناول على الأصحاب ولا تغضب من رؤية صديقك مع عدوك.

ج/التضامن: لقد أولى ابن المقفع التضامن أهمية في كليله ودمته (باب الحماسة المطوقة مثلاً) ثم ركز عليه في الأدب الكبير: أعن أحمك وتعهّد ما غرست (من معروف) وأقل العائر من الإخوان وكن سخياً.

د/التواضع: تحرز من سكر السلطة والمال والعلم والمزلة والشباب، وانزل نفسك يرفعك الناس... وكان ابن المقفع قد رأى أن تجسيم هذه الوصايا قد يصعب فختم الفصل بحدّث عن صديق له قد جسّم هذه المبادئ في سلوكه وفي علاقته مع المحيط.

### الإحالات:

- 1- د. عمر التومي الشيباني: فلسفة التربية الإسلامية، الدار العربية للكتاب 1988 ص 201
- 2- عبد السلام هارون: قذيب سورة ابن هشام، دار إحياء التراث العربي بيروت ص 84-85
- 3- الضاوي حوالدية: الأنصار وقضية خلافة النبي، مجلة دراسات عربية العدد 10/9، عموز /آب- يوليو/أغسطس، 1995 ص 39-49 (دراسة للموضوع بإسهاب)
- 4- ادونيس (علي أحمد سعيد): الثابت والتحول، دار العودة، ط4 بيروت 1986 ص 14
- 5- المرجع السابق ص 19
- 6- صحيح البخاري: دار الكتب العلمية، بيروت ط2، 1423-2002 ص 30 حديث عدد 11
- 7- أخرجه أبو داود في أول كتاب الملاحم.

- 8- سورة الكهف آيات 64-82 وصحيح البخاري حديث 74 ص 32-33
- 9- سورة الكهف آيات 83-98
- 10- A.La Lande La raison et les normes PL 16-17 Hachette Paris 1963
- 11- زكي نجيب محمود: تجديد الفكر العربي، ط7، 1982 ص 309-310
- 12- الأدب الصغير والأدب الكبير، دار المعارف للطباعة والنشر، 1991 ص 6 وكتيلة ودمنة، مؤسسة سعيدان للطباعة والنشر والتوزيع تونس ط 1982 (باب توجيه كسرة برزويه) ص 21
- 13- الأدب الصغير والأدب الكبير ص 30-31 والنيمة: آثار بن المقفع، منشورات دار ومكتبة الحياة لبنان ص 365
- 14- الأدب الصغير والأدب الكبير ص 28
- 15- الأدب الصغير والأدب الكبير ص 12

ينشأ الكلام بين الناس على مفارقة طريقة هي أن المتكلم يتعامل مع كائن متحرك له حياة وديمومة في الزمن، وديمومة وحدها كفيّة بضممان بقاءه، ولكنّه حال مستحالة "أنتلاكها" <http://www.anselmo.com> الكلام لا بدّ له بالضرورة أن يتصور، فرضاً، سكونا واستقراراً لألفاظ اللّغة وإلاّ فلن يتسنّى له خلق خطاب منسجم، فينشأ الخطاب وينبني، ولحظة إشكال لفظه أو تركيبه على سامعه، أو لحظة سوء فهم قد تنشأ بين الباث والمتقبل يعود مستعمل اللّغة على بدء موعلاً في تفاصيل الخطاب آخذاً بعين الاعتبار السّفر المستعمل للّغة.

إنّ المتكلم حال نسجه يحيط حوار يوميّ عاديّ مع سامعه لم يبحث قطّ في ألفاظ اللّغة بحثاً مقارناً إقصائياً يصرف فيه الجهد الكبير في انتقاء ما يجوز وتجنّب ما لا يجوز.

## اتجاهات العولمة

### اشكالات الألفية الجديدة

تأليف: د. السيد ولد أباه

عرض: م. حواس محمود

في هذا الكتاب يقدم الدكتور السيد ولد أباه صورة عن اتجاهات العولمة في عديد الموضوعات: مستوى مفهوم العولمة- الصورة- التاريخ- الأدب- السياسة- الاقتصاد- الاجتماع.

يركز المؤلف على دور ثورة الاتصالات وما تقدمه المعلومة المتنقلة بسرعة لم يكن حتى تخيلها ممكناً، من وقائع جديدة تحدث تغييراً يوازيها في الأفكار والتصورات <http://Archivebeta.Sakhr.net>

كما ويركز الكتاب على عناوين رئيسية أبرزها: أزمة التوسع الرأسمالي، وموضوعة الحرب والشعرية وما يتصل بذلك من تبدل في مفاهيم السيادة وحق التدخل وموضع صراع الثقافات وخلفياتها الفكرية والاستراتيجية.

آثار الثورة الاتصالية في الفضاء العربي: يبين المؤلف أنه وعلى الرغم من تأخر العرب الفادح في المجالات التقنية، إلا أن الأعوام الأخيرة شهدت طفرة كمية ونوعية في المجال الإعلامي ولا زال في طور المخاض والتجريب، وقد بدأت هذه الطفرة بالصحف المهاجرة والمطبوعة بالأقمار الصناعية، والموزعة على نطاق دولي واسع ويتعلق الأمر

بصحف لا تعكس مباشرة توجهات أنظمة الحكم، بل تتحرى الاحتراف والموضوعية، وتفسح المجال أمام الرأي الحر، وقد سلكت الكثير من الصحف داخل الأقطار العربية هذا التوجه، وتلت هذه الثورة في المطبوعات ظاهرة الإعلام الفضائي التي تنامت بسرعة مذهلة في الأعوام الأخيرة وأصبحت مدار اهتمام متزايد لدى الرأي العام الشعبي، وتميزت إجمالاً بهامش الحرية الفسيح المتاح فيها، وظهر ميلها إلى اختراق "المخطورات" العربية، يتناول الموضوعات الحساسة الجريئة التي تحجب في الإعلام الرسمي انصياعاً لضوابط المجاملة الدبلوماسية والتزامات العلاقات البينية الخارجية، وهكذا بدأ المتفرج العربي الذي كان لا يتلقى الأخبار عن بلاده ومنطقته إلا عبر الإعلام الأجنبي يستمرئ هذه النغمة الجريئة الجديدة التي تشكل تحولاً ملحوظاً ف بالتعامل مع القضايا العربية وأحداث الساعة.

إن هذه الطفرة الإعلامية تشكل دون شك تحولاً جذرياً عميقاً في الفضاء الثقافي والاجتماعي ولن تتأخر آثارها الإيجابية في البروز سريعاً، ويمكن النظر إليها كمؤشر بارز من مؤشرات المناخ التعددي الصحي الذي بدأ يلوح في الأفق العربي على الرغم من الثغرات والعوائق المعروفة، وباعتبار أن العالم اليوم يدخل مرحلة جديدة من مراحل الثورة الاتصالية المتعددة الأوجه والمظاهر يتعين على الإعلام العربي أن يخطو خطوات واسعة نحو التأقلم مع معطيات هذه الثورة، التي لا تفتأ تفتح المجال للتواصل البشري وتسهم في تكييفه وصياغته مما أخطر النتائج على التنشئة الاجتماعية العامة والتوازنات الثقافية في عالم اليوم، ولذا

فإن على هذا الإعلام أن يستجيب لهم ثلاثي مترابط يراه المؤلف ملحا وعاجلا.

تعميق وتحذير خط الانفتاح الإعلامي، ومسلك تعددية الرأي وحرية التعبير عنه، تكاملا مع خطوات الانفتاح السياسي، وحركة الانتقال نحو الأساليب والنظم الديمقراطية التي يعبر عنها المجتمع المدني الحي في أغلب الساحات العربي.

-تكريس سمة الاحتراف والتخصص واستخدام الوسائل التقنية المتاحف لذلك، لثمتين أواصر الثقة بالمتفرج العربي الطامح إلى استقبال مادة إعلامية موضوعية ومجردة تمكنه من الإطلاع الدقيق غير المتحيز على قضايا مجتمعه ورهاناته السياسية والثقافية مما يسد ثغرة إغراء الإعلام الغربي الوافد الذي يشهد عادة المتفرج العربي بالمظهر الموضوعي التي يبدو متمسكا به.

-المساهمة في حماية النسيج الثقافي والمجتمعي العربي من تحديات وانعكاسات "عولمة" متسارعة، تقوم على التقنيات الاتصالية المتحددة، وتستهدف الحضارات المختلفة في قيمها ومقومات وعيها الثقافي، لتقدم نموذجاً أحادياً يتم السعي إلى تعميمه عبر أدوات الاختراق الإعلامي الأكثر فتكا.

ويمكن القول بأن هذه الهموم الثلاثة المترابطة تتطلب بلورة فلسفة إعلامية متكاملة على الصعيد القومي تسهم في إعدادها فعاليات الأمة الثقافية والفكرية والإعلامية استجابة للتحديات الكبرى التي يطرحها قرننا الحالي-الذي دخلناه توا-القرن الحادي والعشرين.



خطاب صراع الثقافات-الخلفية الفكرية: لقد ظهرت مقولة "الصدام الثقافي" التي بلورها بالتفصيل "هنتغتون" في مقالته التي تحمل العنوان ذاته الصادرة في صيف 1993 في مجلة "فورين آفيرز" الأمريكية، وقد طورها في كتاب منشور عام 1996 بعنوان "صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي" وينطلق هنتغتون في نظريته المذكورة من فرضية رئيسية مفادها أن المصدر الأساسي للتزايدات في العالم لم يعد يتحدد بالعوامل الاقتصادية أو الإيديولوجية، وإنما بالمعايير الثقافية "فالانقسامات الكبرى بين البشر ستكون ثقافية والمصدر المسيطر للتزايد سيكون مصدرا ثقافيا وستظل الدول والأمم هي أقوى اللاعبين في الشؤون الدولية، لكن التزايدات الأساسية في السياسات العالمية ستحدث بين أمم ومجموعات لها حضارات مختلفة، وسيسيطر الصدام بين الحضارات على السياسات الدولية ذلك أن الخطوط الفاصلة بين الحضارات ستكون هي خطوط المعارك في المستقبل"

هنتغتون-صدام الحضارات-بيروت 1995-ص14.

ولا يهتم هنتغتون كثيراً بالتحديد المنهجي لمقولة "حضارة" وإنما يستخدمها وفق الفهم الإجرائي المعهود، فالحضارات من هذا المنظور هي " أعلى تجمع ثقافي للناس، وأوسع مستوى للهوية الثقافية للشعب"- المرجع نفسه.

والحضارات الرئيسية الفاعلة في عالم اليوم- حسب هنتغتون-هي سبع أو ثماني حضارات هي الغربية، والكونفوشيوسية، والإسلامية، والهندية، والسلافية الأرثوذكسية، والأمريكية اللاتينية، وربما الإفريقية.

ويرى أن المشهد الصراع الثقافي المرتقب سيكون على الخطوط التصدع بين هذه الحضارات المتميزة ويركز هنتنغتون على احتمالات الصدام بين الإسلام مستعرضا تاريخ العداء بين الحضارتين المستمر منذ 1300 سنة بدءا بالحروب الصليبية، مروراً بالحروب العثمانية-الأوربية، انتهاء بالاستعمار وإرهاب "المجموعات الأصولية" و"هذا التفاعل العسكري الذي يمتد عمره قورناً بين الغرب والإسلام ليس من المرجح أن ينحسر، بل قد يصبح أكثر خطراً". المرجع نفسه.

ويرجع هنتنغتون دواعي ومسببات هذه المواجهة الحتمية بين الحضارتين الإسلامية والغربية إلى عوامل أربعة أساسية:

- الزيادة الديمغرافية الهائلة لنسبة المسلمين في العالم
- الصحو الإسلامية ومظاهر رفض الثقافة الغربية
- زيادة النفوذ العسكري والثقافي الغربي في العالم الإسلامي
- نهاية الشيوعية وانتفاء الخطر السوفييتي السابق

على أن هنتنغتون يتوقع ما هو أكثر خطورة وفضاعة وهو التزاع المعمم بين الحضارات الغربية-المسيحية بكل مكوناتها، والتحالف الإسلامي-الكونفوشيوسي الذي ظهر "لتحدي المصالح والقيم والقوة الغربية" وسيهدد مصالح وأمن الغرب-المرجع نفسه.

**العولمة والخصوصية الثقافية:** لا تكاد تخلو صحيفة أو دورية عربية من مقالات أو أبحاث تتناول ظاهرة العولمة وانعكاساتها على الهوية القومية والحضارية، كما أن عشرات الندوات قد عقدت في الساحة العربية تناولت الظاهرة نفسها من ذات المنطلق والمرجعية، وكما يتضح من

هذه الموضوعات فإن الهم المهيمن على اهتمامات المفكرين العرب يتعلق في مجمله بما تطرحه الظاهرة من أشكال ثقافية وأنماط استجابة في السياق القومي تحسباً لما تقتضيه العولمة من اختراق للحواجز والحدود في المستويات المختلفة بما لها من آليات تنميط وتغريب ناجعة، وباعتبار تداخلها ومؤشرات الوضع الجديد المنطبع بالأحادية القطبية والأمركة المعممة، ودون الخوض في هذه الأبعاد الفسيحة المتداخلة يشير المؤلف إلى ثلاثة من الانزياحات التي ترتبط بظاهرة العولمة وتستوقف اهتماما لمفكر العربي.

1- الانزياح المتزايد بين وشائج الانتماء القومي والثقافي وطبيعة الأوصار وأوجه الارتباط المنحرة عن توحد السوق الرأسمالية وتوظيفها للتقنيات الاتصالية الراهنة.

2- الانزياح بين الثورتين التقنية الأولى والثانية، أي ما تقضي إليه الثورة التقنية الجديدة المرتكزة على التقنيات الاتصالية والتصرف في الميراث الجيني.

3- الانزياح المتزايد بين طرفي المعمورة: الشمال الغني بثرواته المالية والعلمية والعسكرية والجنوب المنكوب الذي يمثل ثلاثة أرباع سكان العالم، بما فيهم العرب.

وفي الختام: فالكتاب يبحث في أبرز القضايا الإشكالية المعاصرة، وبالرغم من الكتب الكثيرة التي تتناول هذه القضايا، إلا أنها لازالت تحتاج إلى المزيد لإيجاد صيغ التعامل مع هذه التحولات الكبرى التي نشهدها والتي تشكل تحولا كبيرا في العالم، علينا أن نفكر بموقعنا دورنا فيه

## أساليب السخرية والهزل في "طقوس الليل"

بقلم : صابر الحباشة

قلّما أبدع الجامعيون على كثرة ما زاولوا إنتاج الإبداع وتمحيصه حتى لقد أصبح رائجا لدى القاصي والداني أن طائفة من الجامعيين يريدون تدوين أسمائهم لا نقادا ومرّيين بل روائيين وشعراء والحال أنهم لو تعفّفوا لكان أولى بهم. بل لعلّ الذين يجاملونهم من زملائهم أو يتودّدون إليهم من طلبتهم إذ يُنثون على "إبداعاتهم" شاء، إنّما يدارونهم في مجال ساءت فيه المداراة!

ولعلّ فرجا الحوار لا ينتمي إلى هذه الطائفة إذ كل حكم يفترض مثالا مضادا وهذا ما اقتضاه منا الإنصاف أي أن نبين أن من الجامعيين من هو مقتدر على الإبداع دون أن يتكئ على كرسيه العالي لينال تزكية أدبية.

وقد سطع اسم فرج الحوار من منتصف الثمانينات صاحب توجه روائي يستلهم من المسالك التي سطرها محمود السعدي، حتى خُشي على من يترسم خطاه ألا يعود بطائل فقد أصبحت المسالك التي ابتدعها أبو أبي هريرة إلى نقاد حتى لقد قال القائل إنّ " من أيام عمران" 45 دون أخوانها شأنًا، أما صاحبنا فلا نخال أن عمله هذا قدم مستعاد، وإن كنا على اقتناع بأنه لا أحد يكتب لغة بكرا.

لقد أجرى الكاتب عمله مجرى رواية الرواية، ولقد أطنب الروائيون المحدثون في اصطناع هذه التقنية الروائية إطناباً لا نراهم قد أفلحوا فيه طراً. غير أن مناط اهتمامنا في هذه الرواية المروية هو جملة من الأساليب القائمة على الهزل (إن جرى في العرف الأدبي المدرسي الموازي الإهتمام بهذا المبحث بشكل نمطي كاعتماد ظاهرة الإضحاك بالقول وبالحركة وبالموقف على النحو الذي أسرف في اعتماده مؤلفو الكتب الموازية التي تشتغل على "رسالة الغفران" لأبي العلاء المعري، تمثيلاً) ولعلنا لا نجافي الصواب إن زعمنا أن السخرية هي الطقس الجامع في "طقوس الليل" فضلاً عن براعة الروائي في اتخاذ العربية لغةً روائيةً اتخاذ المقتدر المتفتن في غير إسراف أو اعتساف.

ولعلنا نحمل أساليب السخرية والهزل في "طقوس الليل" في جملة من التنويعات الأسلوبية البارزة:

-تصحيف الأسماء

-الجناس

-المشترك اللفظي

-الاقتباس

وهي كما لا يخفى إجراءات دلالية وبديعية تسهم في تحويل مجرى المعنى عن طرائق تصريفه العادية إلى مسالك عادلة تتراح عن المعهود.

\*تصحيف الأسماء

يقول صفحة 18: "تحرير طفلسلين"

ويقول صفحة 102: "قصف جنوب نبلان والهدم اليومي لمنازل الفلسطينيين وتمحير بدو صحراء القنّب"

إن اختلاط الحروف وتغيير ترتيبها في أسماء هذه البلاد تلويح إلى ضياع الحقوق وكثرة سرد هذه الأخبار المؤذية على مسامع القاصي والداني حتى أنّ التفاصيل لم تعد مهمة فقد أصبح الدمار خبزا يوميا للفلسطينيين، فلا فائدة في تدقيق الأسماء فقد صارت بلا مسميات، وحتى هذه الأسماء مهذّدة بالتهويد. فالسخرية تنشأ في هذه الأمثلة من محاكاة السارد طريقة إلقاء قرآء الأخبار على مسامع المشاهدين هذه الأخبار المأساوية بشكل يومي متكرر. كما يتولّد العبث من اللعب بترتيب الحروف في هذه الأسماء وكأنها تقلبيات صوتية لا مراجع وجودية لها، أو كأنها أسماء أماكن موجودة على كوكب آخر (وبذلك يسهل علينا تصنيف الرواية ضمن الخيال العلمي؟!)

#### \*الجناس/المشترك اللفظي

يقول صفحة 17: "للأمة ربّ يرعاها، أمّا أطفالك فلا ربّ لهم إلا أنت" لا يخفى ما يوجد في هذا المثال من تناصّ مع قصة أبرهة الذي قدم لتهدم الكعبة فقال عبد المطّلب قوله الشهيرة: "لبيت ربّ يحميه"، فكلمة ربّ تطلق في العربية على الإله كما تطلق على الأب في الأسرة، واعتماد الجناس في هذا الموضع لا يُحمل على التحسين اللفظي للكلام كي يخرج في أهمي حلة كما تواضع على القول بذلك البلاغيون إذ يعثرون على استعمال جيّد للجناس، بل نحن أميل إلى اعتبار أنّ المقصود به ههنا هو الاحتجاج على الذين يفرطون في الاهتمام

بالأزمات الخارجية يتقمصونها ويتعاملون عن أزماتهم الذاتية الحارقة وكأنهم يتسلّون بـ "حلّ" أزمات غيرهم حلّاً لفظياً يرتضونه كي يُعفوا أنفسهم من مشقّة الانكباب على مشاكلهم الحقيقية. كما لا ننفي أن يكون الروائي قاصداً أن يلوم "الرعا" عن انكبابهم على تحليل ظواهرهم أنأى الناس عن فهمها (وهذه ظاهرة مرضية موجودة بين طوائف كثيرة من الناس يتصدّون إلى تفسير أشياء لا طاقة لهم على الإلمام بها ولكن استبدّت بهم جرأة على ميادين ليست من اختصاصهم، ولعلهم الرويضة الذين أشار لهم الحديث الشريف!)

#### \* الاقتباس

إنّ توظيف الأسلوب القرآني ضمن ما يسمّى في البديع بالاقتباس 46، دارج في نصوص الأدباء والخطباء والشعراء، بيد أن لفرج الحوار أسلوبه الخاص في اعتماد هذا الوجه البديعي، فهو يحوّر الآيات المستشهد بها تحويراً بسيطاً كتغيير حركة حرفٍ مثلاً فإذا بالمعنى السياقي الذي تكتسبه يخالف ما تظاهر على اتّخاذه المقتبسون إذ يضمّنون أي الذكر الحكيم ونعني إكساب نصوصهم متانة النظم القرآني. إنّ المعنى السياقي الذي ولّده الاقتباس في المثال التالي يخالف تلك الغاية فيما نزعم.

يقول صفحة 41-42:

"ففي الكون عيون تترصد

وأذرع تتربص

ومخالب تنهش وتمزق

وسجون فاغزة أفواها تنتظر من زلّ به اللسان.

والجنان.

والقلم وما يسطرون.

والغضب للحقّ أو لما يُعتقد أنّه هو، وهو خلط فظيع.

فقد حوّل فرج الحوار الآية المنتقشة في أذهان حفاظ القرآن من (والقلم) بكسر الميم إلى (والقلم) بضم الميم. فالواو كانت في آية سورة القلم للقسم والتعظيم، فأصبحت في كلام الرواية للعطف بين معطوفين عليهما هما اللسان والجنان ومعطوف هو القلم وسياق الاستشهاد بيّن المفارقة بين مرتبة القلم في النصّ المتناص معه (النصّ القرآني) وهي مرتبة رفيعة مقدّسة، ومرتبته في النصّ المنشأ (نصّ الرواية) وهي مرتبة وضيفة مدنّسة. وفي ذلك إجحاء - من طرف نخفي - بتقدّم "الدكتاتورية والاستبداد" (ص46) إذا انصبت سطوة أصحابها على أمراء البيان حملة الأقلام.

وإضافة إلى هذه الأساليب التي ترشح بها الرواية فإننا نقف على جملة من المكوّنات القولية الأخرى التي تمثّل طوابع مميّزة لهذا الأثر، نحو الاحتفاء بشئانية المتن و الهامش واعتماد التوليد والإحداث المعجمي.

#### \*التلويع/استثمار الإشاعة

ويظهر ذلك في اعتماد ثنائية المتن والهامش: صفحة 104: "كان آدم العادي يفكر في (...) الانتقال إلى محطة أخرى بحثا عن نشرة أخبار دسمة تقطع دابر الإشاعات الملحة التي تتردّد منذ حين بخصوص بعث المنشط التلفزيوني شادي العالي الذي ملأ الدنيا صخباً وهرجا فتدلّته



في حبه الخلاق وافتشت به النساء و العذارى وفتح له رجال الأعمال قلوبهم وخزائنه و ذاع صيته في الآفاق وأصبح من كبار الأثرياء. ثم مات بدون سابق إنذار (1).

#### الهامش

(1) وكان أن ذهب العباد في تفسير هذه الفاجعة كلّ مذهب (...)" والظاهر أن الراوي غير فقط اسم شخصية واقعية من الشخصيات الإعلامية العامّة في تونس 47 واتقى بالإسم المستعار الذي اصطنعه لها مغبة مطابقة الواقع فيستحيل العمل الخيالي مقالا اجتماعيا. ولو أبقى الراوي على العلم الحقيقي لعدّ نصّا تحليليا ينتمي إلى علم الاجتماع الثقافي يسر أغوار المخيال الجمعي الذي يشترك فيه جمهور التونسيين. فكان العمل الروائي في وجهه من وجوهه وتأريخ لواقع متحقّق - والمعادلة بين محاكاة الواقع ونقده بحيل فنية، رهان يرنو الراوي كسبه.

#### \*البّداع

أحدث الراوي صيغة مبالغه من جذر (ب/د/ع) على وزن فعّال فكان البّداع قائما بأعمال إنشاء الرواية، وهذا التوليد الصيغي المقيس على كلام العرب، يدلّ على كثرة البدع لا الإبداعات، لذلك فهو يكتسب شحنة دلالية تمجينية يحكم الصورة السلبية التي تحملها الثقافة الإسلامية عن البدع بوصفها ضلالات...

إنّه يذكّرنا بأنّ الإبداع بوجه من وجوهه هو إزالة البدع. أمّا الصيغة القياسية للمبالغة من مادّة (ب/د/ع) فهي بديع. ورد في سورة

البقرة: "بديع السماوات والأرض وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون" (48). فكان الراوي يصنع من المؤلف شبيها بالإله، بعد أن فشا في عرف النقاد مصطلح "الراوي العليم"، ولا يخفى أن هذا النعت الأخير مستعار من أسماء الله الحسنى. فالراوي يتبرأ مما ألصق به من ألوهية فرام أن يعطي القوس باريها إذ وسم المؤلف بما هو به حقيق، معرّيا فرية جعل الراوي إلهيا.

#### \* مخاطبة القارئ بشكل مباشر

ورد صفحة 63: "فقال آدم وهو يتلمظ، وقد جحظ عينا وتلطّخ خدّا وتعلق نثار التفاح بشعر لحيته الكث، الداكن السواد، فأصبح يشبه لعبة الكرونية بدائية. وعلى من لم يعجبه هذا التشبيه البليغ أن يكتأني في أجل لا يتعدى الشهر من تاريخ صدور هذا الكتاب، وأن يرفق بخطابه قائمة يضمّنها اثني عشر بديلا بالتمام والكمال، أختار أنسبها للمقام، وأحتفظ به إلى حين صدور الطبعة الثانية إن شاء الله."

هذا الكلام تعليق على وصف مشهد قضم آدم التفاحة وتشبيهه تشبيها مأخوذا من سجلّ معاصر مما يجعل السارد يتوقّع احتجاج القارئ على عدم مناسبة التشبيه للمشبه. فيجيب السارد مستعملا أسلوب الإعلانات بطلب بدائل لهذا التشبيه يضمّنها القارئ في رسالة إلى السارد/المؤلف.

فالصريح من الملفوظ يقرّ بوجود مشاركة القارئ في إنتاج الخطاب الروائي، لا في قراءته وتأويله فحسب.

لكن محتوى التشبيه فيه إزالة للصورة المقدسة لأبي البشر وذلك عبر تشبيهه بلعبة مما يترع عنه إنسانيته بله نبوته وأبوته للجنس البشري.

### \* اللغة والإيحاءات المحلية

اعتمد السارد الفصحى في الحوار مع تطعيمه بعبارات عامية جاهزة، مثل قالب النداء (ص19) "يا سيّد يا محترم" والقول التقريري (ص16) "فهمت واستفهمت" فضلا عن اقتباس صيغ الحكاية الشعبية (ص21) "أيها الناس، فليعلم الحاضر منكم الغائب" (...) "يا سادة يا مادة" مع إدماج مثل فصيح في الخطاب نفسه: "ومن أنذر فقد أعذر!" كما فسح المجال للعامية مباشرة (ص25) "أنست بعقلك يا مناضل، يا ثوري!"

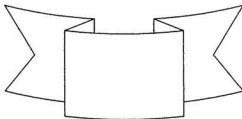
فالسجلات اللغوية متعاقبة تأتي دون تنظيم واضح، ولعلّ مثل هذا الاختيار الليريالي للغة الحوار حرة من قواعد متسقة يدلّ على موقف رافض يتخذ السارد من أدبيات تنظيم الحوار كما جرت في المن الروائي سواء في صيغته المعاصرة أو ما كان منه متوارثا (ونستدل على هذا الموقف الرافض باعتماد التداخل غير المبرّر بين سجلات اللغة).

وفضلا عن اعتماد العامية التونسية في مقاطع من الحوار فإن السارد يعمد إلى إيراد إيجاعات محلية من البيئة التونسية، بشكل ساهر كالترسمية المناقضة (ص46) "كما ترويه جريدة الغروب التي لا يقرأ من الجرائد سواها" فكأنه يعمد إلى ضرب من التسويق المضادّ (كما يسمّى في المصطلح الاقتصادي) إذ القارئ التونسي لا يخفى عليه المقصود بالجريدة المكتنى عنها (49) (وهو أسلوب يناقض الأسلوب البلاغيّ المسمّى

"تلطيفاً" ولعله يرمي من وراء ذلك إلى وصمها بالتقصير قموينا من شأنها لا وحدها بل هي وسائر مثيلاتها، إذ يزعم أن ذلك محض استفزاز فالبطل "لا يقرأ من الجرائد سواها"، فهذا الموقف المتناقض يوحي بالنقد وعدم الرضا عن الوضع الحالي: فالصحافة التونسية هزيلة يكرّر بعضها بعضاً وكون البطل لا يقرأ سوى تلك الجريدة تلويح إلى أنها وغيرها سواء في الغثاء ولا يوجد في الهمّ ما تختار، كما يقول المثل العامي.

#### الهوامش :

- 44- فرج الخوار: طغوس الليل (رواية)، تونس، 2002
- 45- هي آخر آثار السعدي الإبداعية نشرها حققها محمود طرشونة
- 46- درسنا هذا الأسلوب في رواية "العمرة" محمود طرشونة انظر في هذه الكتاب فصل "مسالك الإبداع اللغوي في رواية "العمرة" محمود طرشونة صفحة 95 وما بعدها
- 47- المقصود هنا وجه التلفزيون التونسي شهير توني بالأسكنة القلبية وهو في أوج العطاء يدعى نجيب الخطاب. وقد تركت وفاته فراغا في ساحة التثقيف التلفزيوني في تونس.
- 48- سورة البقرة، الآية 117
- 49- المقصود بها جريدة "الشروق" وهي أوسع الجرائد اليومية انتشارا في تونس، وإن كانت تكثر من صفحات الإشهار وهي صحيفة حاملة لقيم بالرياضة والفن والأخبار.



## ولعة 1

### معنى الحرية

شعر: البشر التلمودي

شيء رائع ..

أن يعيش الإنسان شروقا دائما

أن من لا يحتاج إلى النوم

لا يطلب الليل !

وان من يعيش وعيا خالدا ..

لا يبحث عن الصبح !

أن الوجود الخالد .. <http://Archive.net/Skhrit.com>

.. يرفض أن يكون ..

نتيجة حتمية لحركة آلية ..

ما كانت لتكون ..

لو أن شيئا تافها ما ..

.. حال دون إنمامها !

يجب أن يكون الوجود حرًا

حتى يكون الوعي في مستوى عملية الخلق !

## ولعة : 2

### فرحة الشهيد

من قال ..

إن شبرا من تراب ..

يمكن أن يفتح في وجه المرء ..

آفاقا بلا حدود ؟

من قال ..

إن الأكفان ..

يمكن أن تتحول إلى أشعة للإنعتاق ؟

كم هي ضيقة .. منافذ معرفة الإنسان !

فيا آيتها العلب المتشابهة ..

ذات الاتجاهات المتحدة ..

كم هي هادئة إقامتي بينك ..

وكم هي رائعة : حرّيتي !

ما أجمل أن يستمع على صداه ..

إنّه الصّوت الوحيد الجدير بالسماع !

## مرارة

يا آيتها الوجه المقنعة ..  
انزعي عنك مساحيق الرّياء  
واكشفي عن أحاسيسك الحقيقية..  
فقد سئنا إشاراتك الباهتة..  
.. وهمساتك المشبوهة..  
.. وطعناتك الخفية!  
كرهنا اجترارك لمبادئ لا تؤمنين بها..  
.. وإيمانك بتعاليم لا تعملين بها..  
كرهنا جريك المجنون وراء المادّة <http://Arg>  
.. ولها شك الأبله وراء تفاهات الحياة..  
كرهنا نفاقك الذي حولته إلى ...  
هواء تتنفسينه..  
وماء تشربينه..  
وخيزا تقتاتين منه!  
أيّ مهزلة تلك التي عشناها معكم..  
.. يا أشباه الأحياء..  
وأيّ حياة عابرة للفناء.. امتطيناها  
معكم.. تدعو للبكاء!!؟

## شعور عربيّ

ما كنّا نتصوّر  
أنّا سنصبح يوما.. قطع غيار بسيطة..  
تتحرك بتحرك قطع أخرى..  
..وتموت بموتها!  
أنّ التأقلم الحقيقي..  
لا يعني الانسجام الماديّ مع الآخرين..  
بل التفاعل الخالص مع الواقع..  
..خارج أجواء العوامل الموجهة!  
لكن..  
يبدو أنّ جواز اندثارنا قد وقع فعلا..  
وها أنّا نُدفعُ نحو مصير نخهله؟!  
عجبا..  
كيف يمكن أن يكون هذا..  
طريق الديمقراطية..  
ونسيم الحرية!!



## تحية قلب

" مهداة إلى الأخوين العزيزين : رشيد الذوايدي وحسني لبيب

شعر : عمر السعيد

جدد الجسر يا لبيب وجبر ما يزيل قتامة التخويف  
جدد الجسر وانطلق يسراع فاليسراع يزيل بشع السحوف  
جدد الجسر بالحروف وأكد أن قطب الجسور جسر الحروف  
جدد الجسر كي نروحو ونغدوا فوفه كي نلثم سحر الطيوف  
فالتلاقي فوق الحروف شفاف لقلوب تزيل ليل الكفيف  
جدد الجسر مع رشيد التأخي وامنحانا زخارف التأليف

جهدا ما يباه جوهرا بالأمس ودكنا طلامس التزييف

فابن نعمان (1) كان أول من ألحق دروس الإحياء والتأليف

وابن خلدون والتفاسي و .. و .. قدموا ما يفوق رقم الألفوف  
ثم ها أنتم بأحرف "اقرأ" صغتما للورى كنوز الرفوف  
فبتلك الكنوز معبد (2) عنى خير لحن يزيل عنف العنيف

وتتالت سحائب الطيب في الجو الفسيح وماج كل طريف

وغزا الحرف فكر شيخ عجوز فرأى كوخه كقصر منيف

جهدا للشيوخ ما افتقدوه واغرسا للشباب كل لطيف

واصلا. واصلا لتصبح أوطاني ربعا معانقا لخيريف

1- محمد بن النعمان أول من تربع للتدريس بالأهر

2- معبد : مطرب عاش في فجر الإسلام (ق2)

## قصائد قصيرة

شعر: مختار المومني

\*سيزيف

كلت الصخرة

ولم ينعب سيرف

\*حرية

ARCHIVE

سطوة الجسد:

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

عبودية

سطوة الروح

حرية

\*حب

حبك شاهد إثبات

ضد خواء الروح

\*بوصلة

قلبك بوصلة

وأنا موجة

مشدودة بأجفالك

\*سأسوق النهر

ليجرف من عينيك

دموع الحزن

\*أيها الحلم

ضاع النور من عيني

دع طيفها يلدنو مني.



## وجه

شعر : هندة محمد

(1)

الوجه الأبيض

مازال يفيض بأشياءه

في

يثقيني حدّ الحو

ولا يمضي

حتى يهترئ

اسمي

(2)

الوجه الحجر

بعض يتأرجح

في فوضاه

يتسرّب من بين

ضلوعي

قطرة... قطرة...

قطرة... قطرة...

لا أمثال تشبهه

(3)

الوجه النابض

بي تفاصيله ماء  
ينساب خفيفا  
في جسدي  
قد تورق  
أحزاني الأولى  
ارتباك في لغتي  
بعضك هنا  
بعضي  
أصبغ أشياءك  
باللون المفقود  
أعيد تشكيل اللحظات  
على شكل يديك  
حيث يلملي غبش  
الضوء  
تصير لغتي  
نونك القادمة  
على مهل  
تضوع أحزائك  
الصغيرة  
من ضجري  
ترتبك  
كلما ارتبكت تفاصيلك  
على جسدي.

## فدية الأشواق

شعر: المولدي شعبي

إنني محوكت من حياتي مراضيا  
وعشقت أخرى كي تفك إسامري  
ونسيت أنك كنت لي أحد وثني  
ومُسامري في غيبة الأقسام  
أحرق بالتيه إن كل رسائلي  
وقصائدي ومروائع الأشعار  
أنخال أنك إذ تحنون مشاعري  
تقتص من قلبي جزاء قراري  
وتميت في نبضي لبيب عواطفني  
وتُحبط بي حتى تجيد حصاري؟  
أنا لن أموت إذا امرت تحت صغيرتي  
سفها ظننت، فلست أنت مدامري

أنا لن أموت إذا امرتُحت صغيرتي  
بل إن في ذاك الرحيل نصاري  
فاحمل بقاياك التي أقيمتها  
ما عدتُ أعشق لونها بحدايري  
كانت لقاء عامرا وذعته  
ونقضت من كف الغرام غباري  
إني وهبت للوداد مشاعري  
أسدلت على غيبس الوداد ستاري  
لي في ودادي سند يزيل كآبتي  
ويخرج قلبي ساعة الأسمر  
هي مرفني إن نهت في نوح الهوى  
أوراودتني منعة الإبحار  
تأجج الأشواق في قلبي لظى  
وكان في قلبي موافد نار  
تنراحم الذكرى على قلبي إذا  
حل الظلام وغاب ضوء نهاري

يا ليلة مررت وكان صفاءها  
في غفلة عن أعين الأقدار  
يا نسمة مررت على قلبي شذى  
قد فاح في الأجواء والأقطار  
يا رحلة طالعت وبني شوق إلى  
همساتها ونداءها الجبار  
من بصوت خافت يساب في  
بض العروق، جداول التيار؟  
من لي بدفء حين يشتد الهوى  
يطوي الضلوع برقة الأطيار؟  
ويهدد القلب العليل إذا اشتكى  
من لوعة الأشواق والإقصار  
هيهات من للعاشق المخزون في  
ليل طويل دائم الإدمار  
أترى انتهت أحلامه وتناثرت  
أوهامه كتناثر الأمطار؟



لا الحُب، لا الأَشواق، لا نغماته  
تُهدي جنزافاً آهة الأوتار  
يا عانرف الليل الحزن بمقلتي  
إن الكواكب تستضيء بنايري  
دع عنك الحان الصباة واستغني  
كأساً من الحزن المقيم جوارِي  
يا ساهراً في الليل أنت أنيسه  
والليل مشاك ملغز الأسرار  
هل فيديتي إن عشت بعد رحيلهم  
شوق يوطن في الضلوع دماري ؟  
ما قيعمة الدنيا وأنت حبيسها  
إن لم تُقر مكانة الأقسام ؟  
أنا ساهر في الليل أرتقب الردى  
أنا لأهَاب، ولسْتُ فيه أداري

## بيد الغمام

شعر : مصطفى أحمد النجار

من مشكاة مروحي

من تويجات قلبي

من تأوهات مربابي

مما تبقى من حطب الفرج

وما تهاوى من عراش الياسين

من غابة تشتعل بما سبها

تصاعد القصائد

القصائد الموشومة بالفجائع

فتهرب العصافير من أعشاشها

تلوذ بغمام يتبعثر !

تغص "شهرزاد" بنز قوم سردها الحزين

مرغم أنفها وقلبيها ولسانها

وفترش الموت بوابات الصباح  
تقص المزمار بحشرجات الطبيعة  
تأرجح في قفص الليل حكاياتها  
حكاياتها البانرغة من نجة المحرق  
من دم طانرج . .

من دم يرسم بسرعة الموت لوحاته السوربالية !

آه من نأمر تلتهم أجنحة الطيور  
وهي تترسراعا في سماء القصائد !

تلتهم بهم ساخن قلبي الوحيد

مروحي المبعثره

وقصائدي الواقعة تحت شرفة الفجر !

ومر بابي البدوي التائه في أنقرة المدينة

تجعلني أتلظى بأستلتي

باحثا عن - مات الأمرض

داخلا سوڊاء الوطن !

فاه من نامر عمياء

تردرد الأخضر واليابس

من نامر تحتاج إلى ندى الحب

إلى قصيدة مفاتيحها الموسيقية ..

ببد الغمام ؟ !

يتحدث "أمبسون" في هذا المجال عن المعنى الأصلي Head Meaning معبراً عن المعنى الذي يحتل المرتبة الأولى في البنية بطريقة مستمرة تقريباً، والمعنى البارز Chief Meaning للمعنى الذي يقدمه المتكلم على غيره في الظروف الخاصة بخطابه. فاللفظ حين يستعمل تكون له دلالة معينة هي دلالاته الأولى كما وضعت له في المعجم تعد معناه الأصلي لكن ملاسبات الخطاب وظروف المقام ومستلزماته قد تترع عن اللفظ ما وضع له، أصلاً، لتكسبه معنى هو في الخطاب أبرز وأجلى.

تودوروف Todorov تحدث عن نفس الموضوع مع شيء من التوسع عندما عرض إلى أصناف الخطاب. وهي الخطاب "الحرفي" والخطاب "الغامض" والخطاب "الشفاف".

## العروسي

(2)

قصة : محمد العائش القوي

تغيّب مصطفى نصف أسبوع عن مجالسة أصدقائه بالورشة حتى ظنوا أنه على سوء اتفاق أو خصومة مع العروسي وفي اليوم الموالي إلتحق بهم فتملى الحداد ملامح وجه صاحبه برموزه وسيمائه فاستنتج أنها تشي بإجابات لا يرغب في الاستماع إليها خصوصا وأن مصطفى قد انضم إلى المجلس بغير حيويته المعهودة وظل يطلق تنهيداته من حين إلى آخر. وعندما بدأ إخوان الصفاء في مغادرة المحل هتف العروسي بصاحبه. \* مصطفى ... لا تتعجل الخروج قبل أن أتحدّث معك في موضوع خاص.

تأخر مصطفى عن الخروج، وعندما خلا المحل إلا منهما طلب العروسي متلهفا

\* قل لي .. ماذا قال لك ولد الزرقة؟

- ولد الزرقة رجل شهيم لم يمانع في الموضوع..

\* يعني أنني أستطيع الإستعداد للخطوبة ؟

- لا .. مع الأسف ... أخته العنيدة رفضت المقترح بدعوى أنك ...

\* فهمت ... أرجوك لا تفش سرا لأحد .

حرك مصطفى رأسه مؤيدا طلب العروسي.

في اليوم الموالي فوجئ الجميع بأن ورشة العروسي مغلقة وممر اليوم الثاني والثالث والرابع وهو غائب عن القرية.

قال إبراهيم:

- العروسي ذاب كالملحة .

عقب حميدة :

- كان يعلمنا بمقصده قبل غيابه.

استنتج آخر أنه قد يكون سافر إلى حامة الجريد لأمر طارئ.

ولم ينس مصطفى بكلمة.

بعد أسبوعين فتح العروسي ورشته فتوافد عليه الزبائن بوفرة... هذا يطالب بشباك فات الموعد المضروب لتسليمه بعد دفع عربون بنصف ثمنه، وهذا يريد التعجيل بشحنه لأن موسم الحصاد على الأبواب وهذه ترغب في حشو ثقب بقصعة الحديد المخصصة لغسل الملابس... وآخر يريد تصفيح حصانه أو بغله...

وفي المساء إنعقد المجلس وحلوق أصحابه ضمأى للقيشم الذي كان صاحبه يجلبه معه كلما وطئت قدماه مسقط رأسه أنهم لم يترشفوا إلا الشاي فلم يتجرأوا بالسؤال عن السبب وهذا التغيير المفاجئ.

حل شهر جويلية فكثر الصخب الليلي بالقرية... هذا ختان ولد فلان وهذا عرس فلان بفلانة.. وهذا الذي تسمع فيه أصوات القرابلية وأزيز الطبول هو حفل زفاف صالح ولد العكوري على مباركة بنت الزرقة... أحس العروسي بوخزة في صدره أوجعته أكثر مما أوجعه

حدث بتر ساقه ولكنه تحلى بالشجاعة وصبر على ما أصابه.  
ومرت الحادثة بسلام ربما لأن أصحابه قد إنخرطوا في أجواء حمرية متواترة خلال أماسي ذلك الشهر ليتناسوا عزوبتهم فأنسوا العروسي ما يفكر فيه إلى درجة أنه شك في أن مصطفى قد أخبرهم بالموضوع للتخفيف من وطأته عليه، فلم يتأخر ذات مساء وهو ينفرد به من طرح السؤال الحائر:

\* أعلم الجماعة بالموضوع يا مصطفى؟

- لا... ورأس سيدي حركات.

مرت بقية صيف حار وخريف مكفهر وشتاء ممطر وربيع مزهر ونسي العروسي مباركة بنت الزرقة وظن أنه سوف لن يفكر فيها إلى الأبد لولا دخولها ذات صباح ورشته الصغيرة، والطقس قائض في أوساط الصيف الموالي، وكأنها لص يبحث عن مخبأ من ملاحقيه.  
فوجئ الرجل بوجودها غير أنه لم يضطرب وأظهر أنه لا يعرفها عندما حيته....

- صباح الخير يا سي العروسي.

\* صباح الخير... تفضلي... ألك حاجة عندي؟

- أنا مباركة بنت الزرقة

\* عرفتك.

تأوت المرأة فوق كيس مملوء بالتراب كان أصحاب الحداد قد أعدوه كغيره من الأكياس للجلوس فوقه... وبدأت تذرف دموع وتبكي

بصوت منخفض:

- ساعني يا سي العروسي... لقد ظلمتك!

\* متى ظلمتني وأنا لا أتذكر أنني تعاملت معك أو حدثتك قبل هذا اليوم؟

- صحيح، لكنني رفضت الزواج منك بتلعة أنك تمشي على رجل واحدة.

\* كل شيء بالمكثوب وهذا لا يهم فانا متسامح والمسامح كريم.

- إذن أنت لم تعد تحقد علي؟.

- لماذا أحقد عليك؟

- لأنني قلت ما يجرح إحساسك

\* إحساسي لم تصبه جروح حتى عندما بترت رجلي.

سكتت المرأة هنيهة ثم واصلت كلامها:

- لهذا أنا قد جئت لأعرض عليك نقسي للزواج منك.

\* وأين زوجك الذي أعلن زفافه عنك في الصيف الماضي؟

- مات يا سي العروسي، بعدما ما أصيب بمرض الجذري.

\* عظم الله أجرك والبركة فيك، الله أكبر... ومتى توفي؟

- ليلة الإحتفال بعيد الشغل

\* هو الله يرحمه... أما أنا فلست صالحة للزواج منك الآن.

وبدون تلفظ بكلمة أخرى رفع مطرقته وهوى بها على قضيب حديدي فسوي اعوجاجه فوق السندان.

نظرت مباركة بنت الزرقة إلى القضيب للتأمل استقامته وبصمت وقفت ويسكوت إنسحبت من الدكان.



## صليل الجماجم

بقلم : عبد الملك عبد الله

أذكر جيداً أني رأيت وجوههم قبل أن تبدأ حكايتي هذه، كانوا ثلاثة رجلان وامرأة، دنا مني أحدهم وأمسك بيدي ومسح بقطعة من القطن على بقعة في ذراعي ثم غرس الإبرة في لحمي، هممت أن أصرخ لكن الصوت توقف عند حلقي، حاولت أن أرفع بصري إلى وجهه لكن حفوي كانت ثقيلة وكان فوقها أطنان من الأثقال، ثم ما لبث أن غرق كل شيء في العتمة.

عند ذلك بدأت حكايتي التي سأرويها لكم، قد تسحرون مني بعد سماعها أو قد تقولون هذيان رجل مجنون، لكنني أقسم لكم أني لا أنقل لكم سوى الحقيقة، كان إسمي "نذير" أو هكذا أردت أن يكون إسمي، لا تتعجبوا فالحكايات فقط يستطيع الإنسان ان يختار إسمه فيها، كنت صحفياً بارعاً بل أشهر الصحفيين في بلادي فقد كان قلبي سيفاً مسلطاً على عديد الرقاب فكلما تحدثت عن نقائص قطاع ما إلا وأقبل المسؤول عنه بعد أيام، إلى أن بلغ الأمر بزملائي في العمل إلى منادائي بـ "نذير الشؤم". كانت العيون تترصدني في مكان وكانت الكوايس تلاحقني خوفاً أن تصلني أيادي أولئك الذين تسببت لهم في فقدان وظائفهم، أعود إلى بيتي قبل حلول الظلام أحكم إغلاق النوافذ وأتفقد الأبواب مرّات ومرّات لأتأكد من أني أغلقتها جيداً، سفتح الرسائل

التي وصلتني هذا اليوم، رسائل المعجبين كثيرة، كلها متشابهة، إطرء ومدح، رسائل أخرى تتوعد وتهدد، تسب وتشتم، الحقيقة أني ألقت هذا النوع من الرسائل لكن هذه المرة الأولى التي يصلني فيها هذا العدد الكبير منها، ألقى الرسائل جانبا وألعت اليوم الذي بدأت فيه الكتابة وتحول بخاطري صور عديدة عن خائفتي المبهمة، هل ستكون برصاصة غادرة تستقر بالرأس أم بسيارة مجنونة تلاحقني فوق الرصيف، لكن الصور سرعان ما تتلاشى حين أسمع طرقا خفيفا على الباب، أتسمر في مكاني وعيني مشدودة إلى الباب يزداد الطرق شيئا فشيئا ويزداد معه الخوف الذي كثيرا ما ادعيت أنه لا يعرف الطريق إلى قلبي، أتقدم بخطوات يخفقها الرعب نحو الهاتف وقبل وصولي إليه بخطوتين يأتي إلي صوت رنينه فاهتز كالقائم من حلم مقزع، الطرق يزداد ورنين الهاتف يشتد والأسئلة تتراحم في ذهني، ترى كم عددهم؟ ومن يتصل بي في هذا الوقت المتأخر من الليل؟ وكيف السبيل إلى الخلاص؟ .

لم أجد لأستلتي أجوبة تزيح عني ما تلبسني من وجوم وارتياب فألقيت. بجسدي النحيل فوق كرسي مستسلما للمصير المجهول.

سنة مضت الآن منذ بدأت الكتابة أوّل مرّة، حديث زملائي في العمل وهم يحذروني من مواصلة هذا النهج في الكتابة تحول في ذاكرتي وأنا أمدّ يدي إلى قلمي لأحرّر ورقة الإعدام - أنت تلعب بالنار يا "نذير" ...

وأردُّ بابتسامة ساحرة وأمضي إلى مكثي كأن الأمر لا يعني

- لا ترفع هامتك عاليا يا نذير ... الهامات العالية أيسر في القطع من غيرها.

وأضع يدي على رقبتى مستهزئا.

- هل رأيتم أطول من عنق الجمل... لكنه لا يقطع إلا غيلة أو مخاتلة...  
ورقة الإعدام جاهزة، ساعة فقط وتعلن عقارب الساعة عن تمام الثامنة صباحا، ساعة فقط وتكون الورقة على مكتب المدير، ساعة فقط وينتهي كل شيء وأنفوس نسيمات الحرية وأنام ملء جفوني، أمضي بخطوات ثقيلة وبعيون يهدّها النعاس نحو المرأة أرفع بصري إليها أدقق النظر جيدا، دهشتي أكبر من أن توصف، على المرأة تنعكس صورة جمجمة...  
أتحمس بيدي موطن العينين فلا ألمس سوى كتلة من العظام، أضع أصابعي في موقع العينين فتغوص في حفرتين بلا قرار، هل هو الخوف جعلني أرى صورة غير ضروري؟... أعيد النظر من جديد، ما أراه حقيقة، حقيقة لا شك فيها، عظام جرداء من اللحم، الغريب في الأمر أي أرى وأسمع وأتكلم كما كنت من قبل، تساءلت في أعماقي أيمكن أن يكون مرضا من الأمراض الغريبة في هذا العصر ألم بي، أم هو... وكألهارب من حنقه أترك المرأة وأهرب نحو الباب يجب أن أتصل بالطبيب حالا، لا... بل يجب أن أوصل ورقة الإعدام أولا، خرجت مسرعا إلى الشارع، يا إلهي ما هذا الذي أراه جماجم كثيرة على الطريق، جماجم كلّها متشابهة ولكن لا أحد منها يعبر اهتماما للآخر، الآن تأكدت أنه وباء ألم بالجميع أو ربما كان الكل هكذا ولم أتفطن إلى ذلك، ولكن لا بأس مهما كان السبب فأنا الآن سعيد لن يعرفني أحد بعد اليوم فكلنا متشابهون، سأمضي

دون خوف ودون اكتراث.

أخذت طريقي إلى مقر عملي وكالعادة مررت أمام مقهى الحبي.. من هذا ؟ إنه يلوح لي بيده آه لقد عرفته من ربطة عنقه الصفراء الفاقعة ومن مكانه الذي تعودت أن أجده فيه كل صباح وحين أعود من عملي في المساء وفي الزاوية الأخرى من المقهى يجلس صاحب البطن المنتفخة يدخن "الرجيلة" ويستقبل كل وافد جديد بابتسامة لا يعرف سرّها غيره، شربت قهوتي بسرعة وأنا أنظر إلى الجماجم الجالسة في المقهى محاولاً أن أتبين اختلافاً بينها ثم غادرت وأنا مطمئن إلى أن جمجمتي لا تختلف عمّا رأيته من جماجم في طريقي وفي المقهى وإنّي لن أكون هدفاً سهلاً بعد اليوم ولن تطولني الأيادي التي طالما خشيته، لكن ذراعاً قوية طوقت عنقي حتى كادت تدق عظامي وطوقت الجماجم من كل ناحية، جماجم كثيرة تحيط بي: جماجم كلّها متشابهة حتى في نواياها متشابهة، من أين سأهرب وكلّ المنافذ أمامي أغلقتها هذه العظام الواقفة أمامي وخلفي وعن يميني وعن يساري وكأنّها دمي أبْدَعُ الفنان في تحريكها بخيوط شفافة، بدأت الجماجم تتقدم نحوّي شيئاً فشيئاً فأغمضت عيني وأحسست بعظامي ترتطم بالإسفلت وتناهي إلى سمعي صوت أنثوي ألقت سماعه يسأل عن حالي وصوت رجالي يقول:

- إذا أنت زوجة صالح بائع الحليب، كاد أن يودي هذا الحادث بحياته، الحمد لله أن الجمجمة لم تصب بأذى.

وفتحت عيني أتأمل المرأة الواقفة أمامي وهي تضم وليدها إلى صدرها والدموع تنسكب من عينيها وتحسست بيدي فوجدته في مكانه وتذكرت أنّي لم أتزوج بعد... وتلك حكاية أخرى ...

## خاطرة :

### ألوان

بقلم : أمينة كوكي

أزرق ... أحمر ... أصفر

بحر ... حب ... أمل

شمعة تراءت لي ألوان نارها الخافت ، كألوان حياتي ... على مقربة  
من كراساتي المتفحات حروفاً ، أسطراً ، صفحات تقوَّعت شمعة ..  
شمعة أنارت لي وجه الورق لأكمل تحليل الموضوع الذي بدأته  
ولكن أي تحليل على ضوء شمعة ... ؟

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

دفعت الورق في ملل ، فهذه النار الخافتة أجمت بداخلي حيننا  
كنت أتأساه للأكمل التحليل الفرنسي ... فغلبي شوقي إليك يا  
لغة الضاد فكثبت كلمات ... ليست كالكلمات .. وتناسيت  
التحليل ..

هذا الهدوء العارم الذي أملته علي شمعة أخذني لعشقي من جديد ،  
فاستبحت الدموع على مرفأ ذكرياتي .. وكثبت على ضلوع  
صدري ...

إسم عاشقة من جديد

أي الألوان ضننت أنه إنتفى من حياتي ؟؟ آه لون النار الأحمر ... يا

حي العميق...

ويا أزرق . يا بحر ، أترك نسيت تلك الخطى على زبدك ؟؟ وأنت  
نسيت بعض رملك لدي ... ؟

أما أنت الأخير .. فهل تعيده لي إن أعدت حبه...؟  
صقيع ... مالي أرتعش ؟ مالي أحتق .. ؟ أين الهواء ؟ إني أغرق  
في الظلام...

إنطفأت شمعي ...

وبقيت وحيدة... كان علي أن لا أنيرك شمعي... لأنك حتما  
كنت ستنطفئ ... بعد أن أغرقني في هذا الحنين...  
لن أنيرك حتى في الظلام..  
سأنساك ...

### في مشروعية الصلة بين "المقدمة" ودلالات المجتمع المدني

من غير المتاح لنا وفق الاتفاق والتواضع المنهجي في تغير  
تشريطاته النقدية القائمة على مدارات التنوع والاختلاف في غالبية  
الأنسجة الثقافية والعائلات اللغوية والمسارات التاريخية أن ننكر  
الحاجة إلى التفكيك المبني على مجاوزة أطوار الترصيف والتصنيف  
لمتاريس المتن والحواشي بما أُنجم المكتبات المتكئة على الحاجة إلى  
بعث علامات الحيوية في خارطتنا التراثية والتوسل بسجلات  
كلامية في حال اضطرارنا للذود عن عقلايتنا ومعدونات الفقهاء في  
السعي إلى التدليل على مشروعيات الاختلاف والتنوع المذهبي.

## أين أيام الباكالوريا الإبداعية ؟

بقلم : محسن الكريفي

منذ زمن ليس بالبعيد كانت كلّ نقطة من التراب التونسي تعجّ حيوية وتقطر أريجاً على وقع أيام وليال الباكالوريا الإبداعية. دور الثقافة والشباب مليئة بالمريدين يتابعون ويجادلون المنهجات وأدبيات النصوص وفتوحات المبدعين لا يصدهم البعاد والطرق العصى والالزامات الشخصية. كلّ مندوبية ثقافية، كلّ مندوبية للتعليم لها برنامجها الخاص لها إسهاماتها من أجل المنافسة التزيهة وتوفير سبل النجاح لأبنائها من أجل السمو وتحقيق أمهي النتائج. أسماء من قبيل المنصف الجزار وكمال عمران والحفناوي الماجري.. كسبت شعبية وقاعدة عريضة في بساط التعليم الثانوي أكثر من إشعاعها في التعليم العالي. كانت الباكالوريا مهرجانات فيها الأمسيات الشعرية والسهرات الموسيقية والمحاضرات الممتعة. أغلب المنتديات تخرج عن الإطار المكاني الضيق لتشعّ على كامل الوطن متابعة ومؤازرة واستمتاعا ... ولكن ما نلاحظه الآن أنّ هذه السنة بدأت في الأفول بل إنها أصبحت غريبة في كثير من الأماكن. أضحت من ذلك الزمن الأسطوري الجميل، كطائر "البير كامى" يطارده صياد منكود الحظ. صحيح أن طرق

التواصل تغيّرت وأنّ المواقع الإلكترونية ازدادت وأنّ المراجع  
طريجة الطّرقات ولكن أجواء اللقاء المباشر والحوار الحيّ  
والمناقشات الجماعية وحكّ الفكر بمحكّ الفكر تطلّ من  
المستلزمات التي تزيد الإبداع حضورا والذاكرة ثراء والنشء  
تعلّما وترسيخا.

نداء نوجّهه إلى كلّ الأطراف: إلى وزارة الثقافة إلى  
المنشآت الجهوية للتعليم والثقافة إلى دور الشباب إلى مديري  
المعاهد من أجل بعث هذه الندوات من جديد، إلى تنشيط المعاهد  
إلى إيجاد التّواصي الثقافيّة من أجل بعث حركة فاعلة ومزيد  
إشعاع مازال لمحضوره في الذاكرة الجماعية والفردية خاصّة وأنّ  
سيادة الرئيس في توجيهاته الأخيرة قد أوصى بمزيد تفعيل  
التّواصي داخل المؤسسات التربوية ومزيد الإحاطة بالمجال الثقافي  
على المستويات الجهوية والوطنية..

أملنا كبير أن تملأ الكراسي الفارغة وأن يركب مبدع من قبلي  
الطائرة ليحاضر في طريقة وأن يسهر الجميع على إيقاعات أيام  
وليل أحببناها وسهرنا من أجلها ونرجو أن تعود إلى سالف  
عهدا أكثر حيوية وعلى طلعة بهيّة.